الأنهار

عناصر الموضوع

مفهوم الأنهار	٩٠
الأنهار في الاستعمال القرآني	٩١
الألفاظ ذات الصلة	٩٢
الجنان وجريان الأنهار من تحتها	٩٥
الأنهار نعمة إلهية	٩٨
الأنهار من جند الله	١٠٣
من منافع الأنهار	١٠٧
أكل صيده وطعامه واستخراج حليته	١١٤
أنهار الجنة	١١٨
الأنهار في المثل القرآني	١٢٢
الأنهار والابتلاء	١٢٤
لمسات إعجازية في الأنهار	١٣٥

Made searchable using ScribeTools.com

مفهوم الأنهار

أولًا: المعنى اللغوي .

(نهر) النون والهاء والراء أصلٌ صحيحٌ يدل على تفتح شيءٍ أو فتحه. وأنهرت الدم: فتحته وأرسلته، وأسلته، وسمي النهر لأنه ينهر الأرض، أي: يشقها. والمنهرة: فضاءٌ يكون بين بيوت القوم يلقون فيها كناستهم. وجمع النهر أنهارٌ ونهرٌ ونهورٌ، والنهر محركةً: السعة ومجرى الماء، واستنهر النهر: أخذ لمجراه موضعًا مكينًا، وأنهر الماء: جرى. ونهرٌ نهرٌ: كثير الماء[١].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

هو مسطح مائي ينساب على اليابسة في مجرى طويل، وتبدأ معظم الأنهار من أعالي الجبال أو التلال، وقد يكون منبع النهر مثلجة، أو نهرًا جليديًا ينصهر، أو ينبوعًا، أو بحيرة تفيض مياهها. ويتلقى النهر أثناء جريانه في مجراه المزيد من المياه من الجداول، والأنهار الأخرى، ومياه الأمطار. ويقع مصب النهر في نهايته، حيث تصب مياهه في نهر أكبر، أو في بحيرة، أو في أحد المحيطات[٢].

فالأنهار: هي المجاري المائية التي تتدفق فيها المياه العذبة طوال السنة أو لعدة شهور[٣].

وقيل: النهر: الخليج الكبير. والجدول: النهر الصغير، وأنهار الجنة ليست إلا المياه؛ لأنها تجري من غير أخدود[٤].

والنهر: الماء الجاري المتسع، ثم أطلق على الأخدود مجازًا، فيقال: جرى النهر، وجف النهر، والأصل: جرى ماء النهر، وجف ماء النهر[٥] .

إذن فالأنهار هي: المجاري المائية الواسعة التي تتدفق فيها المياه العذبة.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، مادة نهر، ٥/ ٣٦٢.
(٢) انظر: الموسوعة العربية العالمية: ٢٥/ ٥٣٩.
(٣) تيسير الكريم الرحمن للشيخ السعدي ١/ ٨٨٩، ط مؤسسة الرسالة، ط الأولى، سنة ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠ م.
(٤) انظر: معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، للكفوي ١/ ٩١٠ .
(٥) التوقيف على مهمات التعاريف، للمناوي ١/ ٣٣١.

الأنهار في الاستعمال القرآني

وردت مادة (نهر) في القرآن (١٢٣) مرة، يخص موضوعنا منها (٥٤) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
المفرد	٣	﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الكهف: ٣٣]
الجمع	٥١	﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴿٢٥﴾﴾ [البقرة: ٢٥]

واستعملت (الأنهار) في القرآن بمعناها اللغوي، وهو: الماء العذب الغزير الجاري، ومجرى الماء العذب[٢].

(١) المعجم المفهرس، عبدالله جلغوم، ص١٣٤٧-١٣٤٨.

(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٣٢٧، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٩٥٧.

Made searchable using ScribeTools.com

الألفاظ ذات الصلة

١ اليم:

اليمُ لغة:

الياء والميم: كلمةٌ تدل على قصد الشيء وتعمده وقصده، واليم: البحر[١].

اليم اصطلاحًا:

بحر؛ متسع من الأرض أصغر من المحيط مغمور بالماء الملح أو العذب[٢].

ففي قصة أم موسى، يقول الحق: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ [القصص٧].

وكان المقصود باليم هناك: النيل، لكن المقصود به هنا في سورة الأعراف هو البحر. ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الأعراف: ١٣٦][٣].

الصلة بين النهر واليم:

اليم في كلام العرب مرادف البحر، والبحر في كلامهم يطلق على الماء العظيم المستبحر، فالنهر العظيم يسمى بحرًا، قال تعالى ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [فاطر: ١٢]. فإن اليم من الأنهار[٤].

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٦/ ١٥٢.
(٢) انظر: المحكم، ابن سيده، ١٠/ ٥٧٩.
(٣) المصدر السابق.
وذكر الطبري في تفسيره أن «اليم» هو نهر النيل ١٦/ ٥٧، وكذا قال القرطبي ١١/ ١٩٤، وابن الجوزي في زاد المسير ٣/ ١٥٨.
(٤) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور ٢٠/ ٧٤.

٢ البحر:

البحر لغة:

الماء الكثير، ملحًا كان أو عذبًا، وهو خلاف البر، سمي بذلك لعمقه واتساعه، قد غلب على الملح حتى قل في العذب، وجمعه أبحرٌ وبحورٌ وبحارٌ. وماءٌ بحرٌ: ملحٌ، قل أو كثر[١].

قال ابن فارس:(والأنهار كلها بحارٌ)[٢].

البحر اصطلاحًا:

مستقر الماء الواسع بحيث لا يدرك طرفيه من كان في وسطه، وهو مأخوذ من الاتساع[٣].

وأصل البحر: كل مكان واسع جامع للماء الكثير، هذا هو الأصل، وسموا كل متوسع في شيء بحرًا.

وقال بعضهم: البحر يقال في الأصل للماء الملح دون العذب[٤].

الصلة بين النهر والبحر واليم:

النهر والبحر يلتقيان في المعنى، فكل منهما: مجرى للماء الفائض، أو: الماء الجاري المتسع، ولذا يقول ابن منظور: وقد أجمع أهل اللغة أن اليم هو البحر. وجاء في الكتاب العزيز: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ [القصص٧].قال أهل التفسير: هو نيل مصر، حماها الله تعالى[٥].

وقد يكون البحر للمجرى المتسع للماء المالح، والنهر للمجرى المتسع للماء العذب.

قال الراغب:« يقال في الأصل للماء الملح دون العذب، وقوله تعالى:﴿ ﴿الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾[٦].

---

(١) انظر: لسان العرب، ٤/ ٤١، مادة بحر.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، مادة بحر، ١/ ٢٠١.
(٣) التوقيف على مهمات التعاريف، للمناوي، ١/ ٧١.
(٤) الموسوعة القرآنية، ٨/ ٤٢، لإبراهيم الأبياري .
(٥) لسان العرب، ٤/ ٤٢، مادة بحر.
(٦) انظر: مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني ١/ ٣٦.

Made searchable using ScribeTools.com

٣ البر:

البر لغة:

والبر، بالفتح: خلاف البحر. والبرية من الأرضيين، بفتح الباء: خلاف الريفية. والبرية: الصحراء نسبت إلى البر، ويقال: أفصح العرب أبرهم. معناه: أبعدهم في البر والبدو دارًا. وقوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ﴾ [الروم: ٤١]؛ قال الزجاج: معناه: ظهر الجدب في البر والقحط في البحر، أي: في مدن البحر التي على الأنهار[(١)].

والبر: الصادق. وفي التنزيل العزيز: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٨]. والبر من صفات الله تعالى وتقدس: العطوف الرحيم اللطيف الكريم[(٢)].

البر اصطلاحًا:

البر: خلاف البحر، وهو التراب واليابس[(٣)].

الصلة بين النهر والبر:

إذا كان النهر بمعنى: مجرى الماء الفائض، أو: الخليج الكبير، أو: الماء الجاري المتسع، والبحر: مستقر الماء الواسع، وكما ذكرنا في البر أنه خلاف البحر، فيمكننا القول أيضًا: أن البر خلاف النهر، فالنهر والبر بينهما تضاد.

(١) لسان العرب، ٤/ ٥٢، مادة برر، وانظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، مادة بحر، ١/ ١٧٩ .
(٢) لسان العرب ٤/ ٥٢، مادة برر.
(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٤/ ٤٤، الكليات، أبو البقاء الكفوي، ١/ ٢٢٥.

الجنان وجريان الأنهار من تحتها

حينما نستعرض آيات القرآن الكريم نجد أن ورود الأنهار مرتبطة بالجنات في خمسة وثلاثين موضعًا[1].

وقد ورد لفظ الأنهار مقترنًا بلفظ (من تحتهم) في أربعة مواضع من القرآن الكريم[2]، وما عدا هذه المواضع الأربعة فهو مقترن بلفظ (من تحتها)، وموضع وحيد في سورة التوبة ورد بدون جر وهو في قوله تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

خلافًا لابن كثير، الذي يقرؤها بالجر[3].

ومن المتعارف عليه أن أول حاجات الإنسان الضرورية المكان والمسكن الذي يعيشه ويسكنه، وأحسن المكان المشتمل على النباتات والأشجار، وألطفه وأكمله ما كان تحت قصوره الأنهار بكثرة.

ولهذا ورد في جزاء المؤمنين. ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البقرة: ٢٥].

ثم إن أشد الحاجات الأكل والشرب اللذين يشير إليهما الجنة والنهر، ثم إن أكمل الرزق هو أن يكون مألوفًا ومأنوسًا، وألذ الفاكهة أن تكون متجددة، وإن أصفى اللذة هو أن يكون المقتطف معلومًا وقريبًا، وإن ألذها أن يعرف أنها ثمرة عمله.

فلهذا قال: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥][4].

إذن فالعلة في اقتران الجنات بجريان الأنهار من تحتها هي زيادة النعيم واكتماله الذي أعده الله لأهل هذه الجنات.

قال الشيخ سعيد النورسي: أما ﴿تَجْرِى﴾ فاعلم أن أحسن الرياض ما فيها ماء، ثم

---

(١) هي: البقرة: ٢٥،٢٦٦، وآل عمران: ١٣٦،١٥، ١٩٥،١٩٨، والنساء١٣، ٥٧، ١٢٢، والمائدة ١٢، ٨٥، ١١٩، والتوبة ٧٢، ٨٩، ١٠٠، والرعد٣٥، وإبراهيم٢٣، والنحل٣١، والكهف٣١، وطه٧٦، والحج١٤، ٢٣، والفرقان١٠، والعنكبوت٥٨، ومحمد١٢، والفتح١٧،٥، والحديد١٢، والمجادلة ٢٢، والصف١٢، والتغابن٩، والطلاق١١، والتحريم٨، والبروج١١، والبينة٨.

(٢) الأنعام٦، والأعراف٤٣، ويونس٩، والكهف٣١.

(٣) النشر في القراءات العشر،٢/ ٢٨٠ لشمس الدين محمد بن يوسف أبو الخير ابن الجزري، ت: ٨٣٣ هـ، تحقيق: علي محمد الضباع، المطبعة التجارية الكبرى، وهي قراءة متواترة، انظر: تخريج قراءات فتح القدير، لإيهاب فكري، ص ١٥٧، ط: المكتبة الإسلامية بالقاهرة وانظر: المبسوط في القراءات العشر، ١/ ٢٢٨، لأحمد بن الحسين بن مهران النيسابوري، ت: ٣٨١هـ، تحقيق: سبيع حمزة حاكيمي، مجمع اللغة العربية، دمشق، ط: ١٩٨١ م.

(٤) من خواطر الشعراوي ١/ ٢٠٧.

Made searchable using ScribeTools.com

أحسنها ما يسيل ماؤها، ثم أحسنها ما استمر السيلان، فبلفظ ﴿تَجْرِي﴾ أشار إلى تصوير دوام الجريان، وأما ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ فاعلم أن أحسن الماء الجاري في الخضروات أن ينبع صافيًا من تلك الروضة، ويمر متخرخرًا تحت قصورها، ويسيل منتشرًا بين أشجارها فأشار بـ ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ إلى هذه الثلاثة، وأما ﴿الْأَنْهَارُ﴾ فاعلم أن أحسن الماء الجاري في الجنان أن يكون كثيرًا، ثم أحسنه أن تتلاحق الأمثال من جداوله، فإن بتناظر الأمثال يتزايد الحسن على قيمة الأجزاء، ثم أحسنه أن يكون الماء عذبًا فراتًا لذيذًا، كما قال ﴿مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ فبلفظ (نهر) وجمعه وتعريفه أشار إلى هذه[1].

والجريان لا يكون للأنهار وإنما للماء؛ لأن الأنهار هي ما يشق في الأرض ليجري فيه الماء، فهو من إطلاق اسم المحل وإرادة الحال، مثل قوله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾﴾ [العلق: ١٧].

وإن الناظر إلى الماء وهو يجري منسابًا في الأرض لايرى النهر؛ ولكن يرى الماء، فكأن النهر اختفى في الماء ولا يرى غير الماء.

وإن هذه الجنات فيها بهجة للناظرين، فهي متعة للأنظار، وبهجة للنفوس بذاتها، وفيها ثمرات شهية من كل شيء[2].

قال الراغب: إن قيل: لم قال: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [البقرة: ٢٥].وقد علم أن الماء في البساتين إذا كان جاريًا على وجه الأرض أحسن منها إذا كان جاريًا تحتها؟ قيل: عنى أنهارًا جارية تحت الأشجار، لا تحت الأرض، وقد روي عن مسروق ما يدل على ذلك، وهو أن كل أنهار الجنة تجري في غير أخاديد[3].

على أن هناك آية تقول: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

فما الفرق بين الاثنين؟

يقول الشعراوي في خواطره: آية تجري تحتها الأنهار، أي: أن نبع الماء من مكان بعيد وهو يمر من تحتها، أما قوله تعالى: ﴿تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ﴾ فكأن الأنهار تنبع تحتها، حتى لا يخاف إنسان من أن الماء الذي يأتي من بعيد يقطع عنه أو يجف، وهذه زيادة لاطمئنان المؤمنين، أن نعيم الجنة باق وخالد، ومادام هناك ماء فهناك

(١) إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، ١/ ١٩٣ لبديع الزمان سعيد النورسي ت: ١٣٧٩هـ ،تحقيق: إحسان قاسم الصالحي، ط: شركة سوزلر للنشر، القاهرة، ط: الثالثة، ٢٠٠٢م.

(٢) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة، ١/ ١٧١، لمحمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد، أبو زهرة ت: ١٣٩٤هـ ط: دار الفكر العربي

(٣) تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ١٢٣ لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني ت: ٥٠٢هـ، ط: أولى: ١٤٢٠ هـ ١٩٩٩ م.

خضرة ومنظر جميل، ولابد أن يكون هناك ثمر[1] وكأنه يرجع علة اقتران الجنة بجريان الأنهار إلى بث الطمأنينة من الله لأهل هذه الجنات.

وقال رشيد رضا: ويحتمل أن من في قوله ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أن يكون صلة معناه: تجري تحتها الأنهار، ويحتمل أن يكون المراد أن ماءها منها لا يجري إليها من موضع آخر، فيقال: هذا النهر منبعه من أين؟ يقال: من عين كذا من تحت جبل كذا.

ولو دققنا في هذه الآية آية سورة التوبة لوجدنا أنها الآية الوحيدة التي حددت الأصناف الذين يدخلون الجنة، أما باقي الآيات إنما هي على العموم، فالحق تبارك وتعالى يبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات بجنات تجري من تحتها الأنهار، والجنات جمع جنة، وهي جمع؛ لأنها كثيرة ومتنوعة، وهناك درجات في كل جنة أكثر من الدنيا، واقرأ قوله تبارك وتعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ [الإسراء: ٢١][2].

من تحتها أي: من تحت أشجارها، الأنهار أي: ماء الأنهار، فنسب الجري إلى الأنهار توسعًا، وإنما يجرى الماء وحده، فحذف اختصارًا[3].

(١) خواطر الشعراوي ١/ ٢٠٧.
(٢) تفسير المنار، ١١/ ١٣.
(٣) الموسوعة القرآنية، للأبياري٩/ ٦٥.

وقال السعدي: في آية سورة يونس: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ ۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾﴾ [يونس: ٩].

﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ﴾ أي: بسبب ما معهم من الإيمان، يثيبهم الله أعظم الثواب، وهو الهداية، فيعلمهم ما ينفعهم، ويمن عليهم بالأعمال الناشئة عن الهداية، ويهديهم للنظر في آياته، ويهديهم في هذه الدار إلى الصراط المستقيم وفي الصراط المستقيم، وفي دار الجزاء إلى الصراط الموصل إلى جنات النعيم.

ولهذا قال: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ الجارية على الدوام ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ أضافها الله إلى النعيم، لاشتمالها على النعيم التام، نعيم القلب بالفرح والسرور، والبهجة والحبور، ورؤية الرحمن وسماع كلامه، والاغتباط برضاه وقربه، ولقاء الأحبة والإخوان، والتمتع بالاجتماع بهم، وسماع الأصوات المطربات، والنغمات المشجيات، والمناظر المفرحات. ونعيم البدن بأنواع المآكل والمشارب، والمناكح ونحو ذلك، مما لا تعلمه النفوس، ولا خطر ببال أحد، أو قدر أن يصفه الواصفون[4].

إذن فقد ورد لفظ الأنهار مرتبطًا بالجنات في خمسة وثلاثين موضعًا، والحكمة في

(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١/ ٣٥٨.

Made searchable using ScribeTools.com

اقتران الجنة بجريان الأنهار من تحتها هي: زيادة النعيم الذي أعده الله لأهل هذه الجنات واكتماله لهم، وبث الطمأنينة لهم من الله عز وجل.

الأنهار نعمة إلهية

أولًا: تسخير الأنهار:

الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق السموات والأرض وما فيهن، وهو الذي أنزل من السماء، هذا الماء الذي تتدفق به الأنهار، وتتفجر منه العيون، وتحيا عليه الزروع، وما يخرج منها من ثمر وحب، وهو سبحانه الذي سخر الفلك، وأجراها مع الماء، وسخر الأنهار لتحمل الفلك على ظهرها، وسخر الشمس والقمر تسخيرًا منتظمًا، لا يتخلف أبدًا، وسخر الليل والنهار، على هذا النظام البديع المحكم[1].

ويتعهد الله تعالى بفضله ورحمته لعباده بين الفينة والأخرى، فيذكرهم بما أنعم عليهم من نعم كثيرة لا تعد ولا تحصى، ليحملهم على الشكر والطاعة، وينبههم على قدرته التي فيها إحسان إلى البشر، لتقوم الحجة عليهم من وجهين. وهذا كله دليل قاطع على وجود الله ووحدانيته، وسلطانه وتصرفه في الكون والأنفس، مما يوجب على العباد الإيمان بربهم، والثقة بوعده، وشكر إحسانه ونعمه[2].

قال الله تعالى معددًا آلاءه ومذكرًا

(١) التفسير القرآني للقرآن، لعبد الكريم الخطيب ٧/ ١٨٥.

(٢) التفسير الوسيط، الزحيلي ٢/ ١٢٠٠.

بقدرته: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾﴾ [إبراهيم: ٣٢].

قال الرازي: «يختم الله تعالى وصف أحوال السعداء والأشقياء بالدلائل الدالة على وجود الصانع وكمال علمه وقدرته، وذكر هاهنا عشرة أنواع من الدلائل. أولها: خلق السموات. وثانيها: خلق الأرض،... إلى أن قال: وخامسها: قوله: وسخر لكم الأنهار»[(١)].

التسخير: تذليل الشيء وجعلك إياه منقادًا فكأنك إذا سخرت منه جعلته كالمنقاد لك[(٢)].

وقد ورد تسخير الأنهار صريحًا في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾﴾ [إبراهيم: ٣٢].

والمراد بالتسخير هنا: التذليل، والإخضاع، والانقياد، وذلك بإخضاع هذه المخلوقات لسنن وقوانين تحكمها، وتضبط موقفها بين المخلوقات، بحيث يمكن الإنسان إخضاع هذه المخلوقات والانتفاع بها، إذا هو عرف القوانين الكونية الممسكة بها[(٣)].

وسخر لكم الأنهار فجعلها معدة لانتفاعكم وتصرفكم، وقيل: تسخير هذه الأشياء تعليم كيفية اتخاذها[(٤)].

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ أي: ذللها لكم حيث تشربون منها وتسقون زروعكم وجناتكم ودوابكم، وتشقون منها جداول تسيرونها وفق إرادتكم[(٥)].

وسخر الأنهار تشق الأرض من قطرٍ إلى قطرٍ رزقًا للعباد من شربٍ وسقيٍ، وغير ذلك من أنواع المنافع[(٦)].

وتسخير الأنهار: خلقها على كيفيةٍ تقتضي انتقال الماء من مكانٍ إلى مكانٍ وقراره في بعض المنخفضات فيستقي منه من تمر عليه وينزل على ضفافه حيث تستقر مياهه، وخلق بعضها مستمرة القرار كالدجلة والفرات والنيل للشرب ولسير السفن فيها[(٧)].

ومن المفسرين من يجعل من معاني

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٩/ ٩٦.
(٢) الفروق اللغوية، العسكري ١/ ٢٥٥.
(٣) التفسير القرآني للقرآن، لعبدالكريم الخطيب ٧/ ١٨٥.
(٤) أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ٢٠٠.
(٥) التفسير الوسيط، مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ٥/ ٤٩٩.
(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٣٩.
(٧) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور ١٣/ ٢٣٦.

Made searchable using ScribeTools.com

التسخير: التفجير.

قال الرازي: « واعلم أن ماء البحر قلما ينتفع به في الزراعات، لا جرم ذكر تعالى إنعامه على الخلق بتفجير الأنهار والعيون حتى ينبعث الماء منها إلى مواضع الزرع والنبات، وأيضًا ماء البحر لا يصلح للشرب، والصالح لهذا المهم هو مياه الأنهار »[1].

وقال ابن عطية: «وأما تسخير الأنهار فتفجرها في كل بلد، وانقيادها للسقي وسائر المنافع»[2].

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾، أي: فجر لكم ينابيع الماء الجاري في الأنهار، ويسر توزيعها وتفرعها لسقي أكبر مساحة من الأرض والشجر والزرع[3].

وهو الذي سخر لكم الأنهار، وشقها في بطون الأودية وجعل منها حياة الأقاليم والأقطار. ألا ترى إلى نهر النيل والفرات وغيرهما؟![4].

ومن باب التسخير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [النحل: ١٤].

(١) مفاتيح الغيب للفخر الرازي، ١٩/ ٩٨.
(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٣٣٩.
(٣) التفسير الوسيط، الزحيلي، ٢/ ١٢٠٠.
(٤) التفسير الواضح، لمحمد حجازي ٢/ ٢٦٣.

يخبر تعالى عن تسخيره البحر المتلاطم الأمواج، ويمتن على عباده بتذليله لهم وتيسيرهم للركوب فيه،... يسيرون من قطرٍ إلى قطر، ومن بلد إلى بلد، ومن إقليم إلى إقليم، لجلب ما هناك إلى ما هنا، وما هنا إلى ما هناك[5].

ويتضح لنا مما سبق من كلام المفسرين: أن تسخير الأنهار يدور حول: التذليل، والإخضاع، والانقياد، وخلقها على كيفيةٍ معينة تقتضي انتقال الماء من مكانٍ إلى مكانٍ، وقراره في بعض الأماكن، وتفجيرها وتيسير توزيعها.

ثانيًا: تفجير الأنهار

التفجر: التفتح بالسعة والكثرة. وقرأ مالك بن دينار(ينفجر) بالنون[6].

وقد ورد الحديث عن تفجير الأنهار في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع:

الأول: في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ٤٨٣.
(٦) الكشاف ١/ ١٥٥، لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري، ت: ٥٣٨هـ، نشر: دار الكتاب العربي، بيروت، ط: ثالثة، ١٤٠٧ هـ، البحر المحيط١/ ٤٢٨، لأبي حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي، ت: ٧٤٥هـ، تحقيق: صدقي محمد جميل، نشر: دار الفكر، بيروت، ط: ١٤٢٠ هـ.

﴿ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [البقرة: ٧٤].

والثاني: في قوله تعالى: ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾﴾ [الإسراء: ٩١].

والثالث: في قوله تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الكهف: ٣٣].

ويدور كلام المفسرين عن تفجير الأنهار الوارد في تلك الآيات حول المعاني الآتية: الشق والسيلان، التفتح والإجراء.

ففي آية سورة البقرة قال أبو حيان: «والتفجر: التفتح بالسعة والكثرة، والانفجار دونه، والمعنى: إن من الحجارة ما فيه خروقٌ واسعةٌ يندفق منها الماء الكثير الغمر؛ إذ ليس المعنى ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ﴾ للحجر الذي يتفجر منه الماء، إنما المعنى للأحجار التي يتفجر منها الأنهار.

وقد ذهب بعضهم إلى أن الحجر الذي يتفجر منه الأنهار، هو الحجر الذي ضربه موسى بعصاه، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا»[(١)].

وإن من الحجارة للذي يتفجر منه الأنهار، يعني: من الحجارة ما يسيل منه أنهار من ماء[(٢)].

فكأنه قيل: وإن من القاسية قلوبهم من يراجع، فبعض يتفجر منه الأنهار، ومعناه: حكمة بالغة كأنهار متفجرة، وبعض يتحصل منه نوع من العلوم يجري مجرى الماء... ، ونبه بفحوى في الكلام أن هؤلاء المذمومين لم يحصل منهم شيء من ذلك فهم أحجار صلدة، وإنما قال: ﴿لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ﴾، ولم يقل من اعتبار بلفظ الحجارة[(٣)].

وسبب التفجير للأنهار إنما هو خشية الله عز وجل، قال مجاهد: كل حجر ينفجر منه الماء، وينشق عن ماء، أو يتردى من رأس جبل، فمن خشية الله[(٤)].

أما عن آية سورة الإسراء فجاء في تفسيرها: ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ﴾ أي: بستان ﴿فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ أي: تفتحها وتجريها خلالها أي: وسط تلك الجنة[(٥)].

فتجرى الأنهار وسط تلك الجنة جريانًا قويًا دائمًا للانتفاع بها في ري تلك الجنة وغيرها[(٦)]. ، تشقيقًا.[(٧)].

والمعنى: هب أنك لا تفجر الأنهار

(١) البحر المحيط، لأبي حيان ١/ ٤٢٨.

(٢) الوسيط، للواحدي ١/ ١٥٩.

(٣) تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٢٣٣.

(٤) زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ٨٠.

(٥) انظر: الوسيط، للواحدي ٣/ ١٢٧، وزاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٥٣.

(٦) التفسير الوسيط، مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ٥/ ٨٠٣.

(٧) معالم التنزيل، البغوي ٣/ ١٦٢.

Made searchable using ScribeTools.com

لأجلنا ففجرها من أجلك بأن تكون لك جنةٌ من نخيلٍ وعنبٍ ﴿فَنَفَجَّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ﴾ أي: تجريها بقوةٍ ﴿خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا﴾ أي: وسطها تفجيرًا كثيرًا[١].

تفجر أنهارًا تسقي جنةً واحدةً تكون تلك الجنة وأنهارها لك[٢].

وذكر المفعول المطلق بقوله: (تفجيرًا) للدلالة على التكثير؛ لأن تفجر قد كفى في الدلالة على المبالغة في الفجر، فتعين أن يكون الإتيان بمفعوله المطلق للمبالغة في العدد، وهو المناسب لقوله: ﴿خِلَـٰلَهَا﴾، لأن الجنة تتخللها شعب النهر لسقي الأشجار. فجمع الأنهار باعتبار تشعب ماء النهر إلى شعبٍ عديدةٍ[٣].

وفي آية سورة الكهف قال بعضهم:

﴿وَفَجَّرْنَا خِلَـٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ أجرينا وشققنا وسطهما[٤].

﴿وَفَجَّرْنَا خِلَـٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ أي: وشققنا وسط الجنتين نهرًا، تتفرع عنه عدة جداول، لسقي جميع الجوانب[٥].

﴿وَفَجَّرْنَا خِلَـٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ أي: والأنهار متفرقة فيهما هاهنا وهاهنا[٦].

والرازي يرى أنه نهر لكنه كالأنهار في امتداده فيقول: أي: كان النهر يجري في داخل تلك الجنتين، والتشديد على المبالغة؛لأن النهر يمتد فيكون كأنهار، و﴿خِلَـٰلَهُمَا﴾ أي: وسطهما وبينهما[٧].

(١) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٣٠٦.
(٢) التحرير والتنوير ١٥/ ٢٠٨
(٣) التحرير والتنوير ١٥/ ٢٠٩
(٤) التفسير الواضح ٢/ ٤١٦
(٥) التفسير الوسيط، الزحيلي ٢/ ١٤٢٤
(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٤٣
(٧) مفاتيح الغيب، الرازي، ٢١/ ٤٦٣

الأنهار من جند الله

نعم الله سبحانه على عباده لا تعد ولا تحصى، ومن نعمه عليهم أن شق لهم البحار والأنهار بقدرته وحكمته؛ لكي يستطيعوا اصطياد كائناتها البحرية من الأسماك ليأكلوها طرية، وسخر الله سبحانه تلك البحار؛ لكي يتزينوا بحليتها، فيستخرجوا منها الحلي، مثل اللؤلؤ والمرجان والأصداف لاستعمالها في الزينة، وليس ذلك فحسب؛ وإنما فيها منافع أخرى يبتغيها عباده، كنقلهم للتجارة والأمتعة والارتحال عن طريقها إلى الأقطار والبلدان الأخرى.

إذن فالأنهار بهذه الطريقة تعد من جند الله سبحانه وتعالى.

قال الله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [النحل: ١٥].

وقوله: ﴿وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا﴾ أي: جعل فيها أنهارًا تجري من مكانٍ إلى مكانٍ آخر رزقًا للعباد، ينبغ في موضعٍ وهو رزقٌ لأهل موضعٍ آخر، فيقطع البقاع والبراري والقفار، ويخترق الجبال والآكام، فيصل إلى البلد الذي سخر لأهله، وهي سائرةٌ في الأرض يمنةً ويسرةً، وجنوبًا وشمالًا، وشرقًا وغربًا، ما بين صغارٍ وكبارٍ، وأوديةً تجري حينًا وتنقطع في وقتٍ، وما بين نبع وجمع، وقوي السير وبطئه بحسب ما أراد وقدر وسخر ويسر[1].

و﴿وَأَنْهَٰرًا﴾ وجعل فيها أنهارا، النيل، والفرات، ودجلة، وسيحان، وجيحان[2].

ثبت في العلوم العقلية أن أكثر الأنهار إنما تتفجر منابعها في الجبال، فلهذا السبب أتبع ذكرها بتفجير الأنهار[3].

وفي الأرض نعم كثيرة، أهمها ثلاث:

وهي تثبيت الأرض بالجبال الراسيات، كيلا تضطرب الأرض وتتحرك بأهلها، وإجراء الأنهار على وجه الأرض لتيسير الانتفاع بها، ففيها حياة الإنسان والحيوان والنبات[4].

هو الذي ألقى في الأرض رواسى من الجبال الشامخات؛ لئلا تميد بكم الأرض وتضطرب عند دورانها وتحركها، وجعل لكم فيها أنهارًا كنهر النيل والفرات والمسيسبى وغيرها وجعلها سبلًا وطرقًا لربط أجزاء الأرض ولنقل التجارة والمصالح، وجعلها علامات وحدودًا، وفي الأرض علامات أخرى وحدود من أنهار وجبال وآكام[5].

﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٨٣.
(٢) الوسيط، للواحدي ٣/ ٥٨.
(٣) البحر المحيط، لأبي حيان ٦/ ٥١٤.
(٤) التفسير الوسيط، الزحيلي ٢/ ١٢٤٨.
(٥) التفسير الواضح، لمحمد حجازي ٢/ ٣٠٢.

Made searchable using ScribeTools.com

﴿بِكُمْ﴾ أي: ومن نعم الله الكثيرة عليكم أنه جعل في الأرض جبالًا شامخات ثابتات تحفظ اتزانها في دورانها حتى لا تضطرب في حركتها. ﴿وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي: وجعل في الأرض أنهارًا عذبة تجرى مياهها من منابعها إلى مصابها، لتهيئ الري للإنسان والحيوان والنبات[1].

كراهة ﴿أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ وتضطرب[2]، أي: نصب فيها جبالًا ثوابت أن تميد أي: لئلا تميد، وقال الزجاج: كراهة ﴿أَنْ تَمِيدَ﴾[3].

ومن رحمته تعالى أن جعل فيها أنهارًا، يسوقها من أرض بعيدة إلى أرض مضطرة إليها لسقيهم وسقي مواشيهم وحروثهم، أنهارًا على وجه الأرض، وأنهارًا في بطنها يستخرجونها بحفرها، حتى يصلوا إليها فيستخرجونها بما سخر الله لهم من الدوالي والآلات ونحوها[4].

ونعمة الأنهار عظيمةٌ، فإن منها شرابهم وسقي حرثهم، وفيها تجري سفنهم لأسفارهم[5].

وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النمل: ٦١].

قال ابن كثير: وجعل خلالها أنهارًا أي: جعل فيها الأنهار العذبة الطيبة شقها في خلالها وصرفها فيها ما بين أنهارٍ كبارٍ وصغارٍ وبين ذلك، وسيرها شرقًا وغربًا وجنوبًا وشمالًا بحسب مصالح عباده في أقاليمهم وأقطارهم حيث ذرأهم في أرجاء الأرض وسير لهم أرزاقهم بحسب ما يحتاجون إليه[6].

وجعل خلالها وفي أوساطها أنهارًا جارية ينتفع كل بها كل قاطنيها في شؤن حياتهم[7].

وسبق أن ذكرنا الصلة بين النهر واليم، وقلنا: إن لفظ النهر واليم بينهما ترادف إلى حد كبير، وقد أطلق القرآن الكريم اليم على النهر في آيتين كريمتين، الأولى هي قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ [القصص٧].

وذكر الطبري في تفسيره أن «اليم» هو نهر النيل[8].

(١) التفسير الوسيط، مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ٥/ ٥٩٩.
(٢) الموسوعة القرآنية، لإبراهيم الأبياري ١٠/ ١٩٢.
(٣) زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٥٥٣.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٣٧.
(٥) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور ١٤/ ١٢٢.
(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ١٨٣
(٧) التفسير الوسيط، مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ٧/ ١٧٠٠
(٨) جامع البيان، الطبري ١٦/ ٥٧.
وقال البغوي: «واليم البحر وأراد هاهنا: النيل». معالم التنزيل ٣/ ٥٢٣.
وكذا قال القرطبي ١١/ ١٩٤، وابن الجوزي في

﴿وَأَوْحَيْنَآ﴾: وألهمنا. ﴿فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾ اليم: البحر. والمقصود به هنا: النيل، وكل نهر عظيم يطلق عليه بحر لاستبحاره[1].

أي: فإذا خفت عليه من القتل بسبب سماع أحد من الجيران صوته، فألقيه في بحر النيل، ولكن لا تخافي عليه حينئذ من الغرق ومن الضياع ومن الوقوع في يد بعض جواسيس فرعون الذين يبحثون عن الولدان، وغير ذلك من المخاوف، ولا تحزني لفراقه.

وهكذا طمأنها الحق تعالى عن مخاوفها وهواجسها الجديدة بعد إلقائه في البحر، بإلقاء الأمان والسكينة في قلبها؛ لأن عناية الله ورعايته تحوط بأنبيائه ورسله منذ بدء الحمل وفي عهد الطفولة.

وذلك أنه كانت دارها على حافة النيل، فاتخذت تابوتًا، ومهدت فيه مهدًا، فلما كان ذات يوم دخل عليها من تخافه، فذهبت فوضعته في ذلك التابوت، وألقته في النيل، فذهب مع الماء واحتمله على سطحه، حتى مر به على دار فرعون، فالتقطه الجواري وذهبن به إلى امرأة فرعون آسية بنت مزاحم، فلما كشفت عنه، أوقع الله محبته في قلبها، فآثرت الإبقاء عليه، ولم تزل تكلم فرعون حتى تركه لها.

﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾ [القصص:٧]

أي: إنا سنرده عليك لتكوني أنت المرضعة له، وسنجعله نبيًا مرسلًا إلى أهل مصر والشام.

وقد جمعت هذه الآية الواحدة بين أمرين ونهيين، وخبرين وبشارتين والأمران: هما أرضعيه وألقيه، والنهيان: هما ولا تخافي ولا تحزني، والخبران: هما إنا رادوه إليك، وجاعلوه، والبشارتان: في ضمن الخبرين، وهما الرد والجعل من المرسلين[2].

وهكذا وضح جليًا أن اليم جند من جنود الله في حفظ موسى عليه السلام من الغرق بأمر الله وفي غرق عدو الله وعدوه، وهو هو نهر النيل، قال صاحب المنار:

وأما الغرق في النيل فيفهم من قول القرآن مثلًا في سورة طه: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ۝٣٨ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ۝٣٩﴾ [طه: ٣٨-٣٩].

ثم قوله في آخر هذه القصة: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ۝٧٨﴾ [طه: ٧٨].

فالمتبادر من ذلك أن فرعون غرق في

زاد المسير ٣/ ١٥٨.

(١) التفسير الوسيط، مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ٧/ ١٧٣٧.

(٢) التفسير المنير، الزحيلي ٢٠/ ٦٣.

Made searchable using ScribeTools.com

نفس اليم الذي ألقي فيه موسى وهو النيل، وإن كان أكثر المفسرين يرى أنه أغرق في البحر الأحمر.

قال الطاهر ابن عاشور: وقد أغرق فرعون وجنده في البحر الأحمر حين لحق بني إسرائيل يريد صدهم عن الخروج من أرض مصر[١].

ومثل ذلك أيضًا ما جاء في سورة القصص، وهو قوله: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ [القصص٧].

ثم قوله فيها بعد مما يدل على أن اليم جند من جنود الله سبحانه: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [القصص٤٠].

أي: أغرقناهم في البحر في صبيحةٍ واحدةٍ[٢]، كنايةٌ عن إدخالهم في البحر حتى غرقوا، شبهوا بحصياتٍ. قذفها الرامي من يده[٣].

ومن الآيات التي أطلق القرآن الكريم فيها اليم على النهر، ووضح فيها جليًا أنه من جنود الله سبحانه قوله تعالى: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الأعراف: ١٣٦].

(١) التحرير والتنوير ٩/ ٧٥.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٢١٤.
(٣) البحر المحيط، لأبي حيان ٨/ ٣٠٧.

ومما يدل على أن النهر من جنود الله سبحانه قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾﴾ [طه: ٧٨].

أي: تبعهم فرعون ومعه جنوده، فغشيهم من البحر ما غشيهم مما هو معروف ومشهور، فغرقوا جميعًا. وتكرار غشيهم للتعظيم والتهويل[٤]. أي: فعلاهم وغمرهم ما غمرهم، من الأمر الهائل المروع الذي يعجز البيان عن وصفه، حيث انطبق عليهم الماء فأغرقهم فهلكوا جميعًا، ونجى الله فرعون وأبقاه ببدنه خاليًا من الروح في اليوم الذي نجى الله فيه موسى وبني إسرائيل من الغرق[٥].

من خلال الآيات السابقة يتضح جليًا أن اليم جند من جنود الله سبحانه وتعالى سواء أكان المقصود به النهر أو البحر، لكن الثابت من المعاجم اللغوية أن اليم مرادف للنهر.

وليس بلازم أن يكون الجندي لهلاك العدو دائمًا، وإنما كثيرًا ما يكون الجندي لنفع المسلمين، فالأنهار كانت جند خير ونفع لبعض عباده، وجند وبال وهلاك على بعضهم، وهذا ما ستتناوله تفصيلًا في مطالب المبحث التالي الذي يتحدث عن منافع الأنهار من خلال آيات القرآن الكريم بصورة توضيحية.

(٤) التفسير المنير، الزحيلي ١٦/ ٢٥٥.
(٥) التفسير الوسيط، مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ٦/ ١٠٥٠.

من منافع الأنهار

المنافع: ما فيه الخير والصالح والفائدة، وكل ما ينتفع به، جنى من عمله منفعةً كبرى[(١)].

وعلى ذلك تتعدد منافع الأنهار على الإنسان، وتتمثل هذه المنافع في شرب مائها، الذي جعل الله فيه حياة الإنسان، ومنها تسقى الزروع والثمار، ويعبرها الإنسان ركوبًا للجهاد في سبيل الله وطلبًا للرزق، ويتمتع الإنسان بجريان مائها، ويصطاد من أسماكها وكائناتها لحمًا طريًا يتخذه طعامًا شهيًا، وتفصيل الحديث عن تلك المنافع في المطالب الآتية:

أولًا: شرب مائها:

الماء يعد أعظم نعمة من الله تعالى، وماء النهر من أعظم منافعه شرب مائه، والآيات في ذلك كثيرة، منها قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنبياء: ٣٠].

أي: أصل كل الأحياء[(٢)].

ومن الآيات قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة: ٢٤٩].

﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾، أي: فلا يصحبني اليوم في هذا الوجه، ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾، أي فلا بأس عليه.

قال ابن عباس: من اغترف منه بيده روي، ومن شرب منه لم يرو[(٣)].

قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾﴾ [إبراهيم: ٣٢].

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾ لتسقي حروثكم وأشجاركم وتشربوا منها[(٤)].

ونعمة الأنهار عظيمةٌ، فإن منها شرابهم وسقي حرثهم، وفيها تجري سفنهم لأسفارهم[(٥)].

﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [الحجر: ٢٢] أي:

(١) معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار وآخرون ٣/ ٢٢٥٩.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٢٩٨.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/ ٥٠٩.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ١/ ٤٢٦.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٤/ ١٢٢.

Made searchable using ScribeTools.com

فأنزلنا من السحاب مطرًا، ﴿فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾ أي: يمكنكم أن تشربوا منه، وأسقينا به زرعكم ومواشيكم، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

وقال سبحانه: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الواقعة: ٦٨-٧٠].

وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [النحل: ١٠].

﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ أي: لستم له بحافظين، بل نحن ننزله ونحفظه عليكم ونجعله ينابيع في الأرض، ولو شاء تعالى لأغاره وذهب به، ولكن من رحمته أبقاه لكم في طول السنة، لشرب الناس والزروع والثمار والحيوان، فالتخزين يكون في السحاب وفي جوف الأرض[1].

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ أي: وخلقنا من الماء كل حيوان سواء النازل من السماء والنابع من الأرض. ﴿كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ أي: صيرنا كل شيء حي بسبب من الماء، لا يحيا دونه، سواء النبات وغيره، فالماء سبب لحياته[2].

وفي إطار الانتفاع بماء البحر يقول الله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [فاطر: ١٢].

ذكر سبحانه نوعًا آخر من بديع صنعه، وعجيب قدرته فقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ فالمراد بالبحرين: العذب والمالح، فالعذب الفرات الحلو، والأجاج المر، والمراد ب ﴿سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ﴾ الذي يسهل انحداره في الحلق لعذوبته[3].

ثانيًا: سقيا الزروع والثمار:

كما أن من منافع الأنهار شرب مائها، وانتفاع الإنسان غاية النفع في ذلك، فإن ما تحتاجه الزروع والثمار من ماء فيه منفعة كبيرة قد لا تقل أهمية عن نفع الإنسان بماء النهر في شرابه.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [السجدة: ٢٧].

يبين تعالى لطفه بخلقه وإحسانه إليهم في إرساله الماء، إما من السماء أو من السيح،

(١) التفسير المنير، الزحيلي ١٤/ ٢٥
(٢) المصدر السابق ١٧/ ٤٣
(٣) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٣٩٣.

وهو ما تحمله الأنهار وينحدر من الجبال إلى الأراضي المحتاجة إليه في أوقاته، ولهذا قال تعالى: ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾ وهي التي لا نبات فيها، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝٨﴾ [الكهف: ٨].

أي: يبسًا لا تنبت شيئًا، وليس المراد من قوله ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾ أرض مصر فقط، بل هي بعض المقصود وإن مثل بها كثيرٌ من المفسرين فليست هي المقصودة وحدها، ولكنها مرادةٌ قطعًا من هذه الآية، فإنها في نفسها أرضٌ رخوةٌ غليظةٌ تحتاج من الماء ما لو نزل عليها مطرًا لتهدمت أبنيتها، فيسوق الله تعالى إليها النيل بما يتحمله من الزيادة الحاصلة من أمطار بلاد الحبشة، وفيه طينٌ أحمر، فيغشى أرض مصر وهي أرضٌ سبخةٌ مرملةٌ محتاجةٌ إلى ذلك الماء، وذلك الطين أيضًا، لينبت الزرع فيه، فيستغلون كل سنةٍ على ماءٍ جديدٍ ممطورٍ في غير بلادهم، وطينٍ جديدٍ من غير أرضهم، فسبحان الحكيم الكريم المنان المحمود ابتداءً[1].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ۝٣٢﴾ [إبراهيم: ٣٢].

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ لتسقي حروثكم وأشجاركم وتشربوا منها[2].

وجعله سببا للإنبات، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [الأنعام:٩٩]

أي: أن الله هو الذي أنزل بقدرته وتصريفه وحكمته من السحاب ماء بقدر، مباركًا، ورزقًا للعباد، وإحياء وإغاثة للخلائق، رحمة من الله بخلقه، فأخرجنا بسبب هذا المطر أصناف النبات المختلف في شكله وخواصه وآثاره، كما قال تعالى: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ [الرعد: ٤].

وقال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

وفي آية: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٩٥﴾ [الأنعام: ٩٥].

ثم ذكر تعالى آية من آيات التكوين في النبات وهي إنزال الماء من السماء وأخرجنا بالمطر زرعًا وشجرًا أخضر، ثم بعد ذلك نخلق فيه الحب والثمر، لهذا قال تعالى: ﴿نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾. أي: يركب بعضه بعضًا كالسنابل ونحوها[3].

فالله سبحانه هو الذي خلق السموات والأرض وما فيهن، وهو الذي أنزل من

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٣٣٢.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ١/ ٤٢٦.

(٣) التفسير المنير، الزحيلي، ٧/ ٣٠٨.

Made searchable using ScribeTools.com

السماء هذا الماء الذي تتدفق به الأنهار، وتتفجر منه العيون، وتحيا عليه الزروع، وما يخرج منها من ثمر وحب[1].

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ أي: فجر لكم ينابيع الماء الجاري في الأنهار، ويسر توزيعها وتفرعها لسقي أكبر مساحة من الأرض والشجر والزرع[2].

وقال تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾ [البقرة: ٢٦٦].

وهذا المثل مضروب لمن عمل عملًا لوجه الله تعالى من صدقة أو غيرها، ثم عمل أعمالًا تفسده، فمثله كمثل صاحب هذا البستان الذي فيه من كل الثمرات، وخص منها النخل والعنب لفضلهما وكثرة منافعهما، لكونهما غذاء وقوتًا وفاكهة وحلوى، وتلك الجنة فيها الأنهار الجارية التي تسقيها من غير مؤنة، وكان صاحبها قد اغتبط بها وسرته[3].

وقال تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الكهف: ٣٣].

جعل الله لأحدهما جنتين، أي: بستانين من أعناب، محاطين بنخيل، وفي وسطهما الزروع والأشجار المثمرة.

﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾ أي: أخرجت ثمارها، ولم تنقص منه شيئًا في كل عام.

﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ أي: وشققنا وسط الجنتين نهرًا، تتفرع عنه عدة جداول، لسقي جميع الجوانب[4].

وقال تعالى: ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾﴾ [الإسراء: ٩١].

تفجر أنهارًا تسقي جنةً واحدةً تكون تلك الجنة وأنهارها لك[5].

ثالثًا: ركوبه للتنقل والجهاد:

قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [النحل: ١٤].

يمتن الله على عباده بتذليل البحر لهم وتيسيرهم للركوب فيه، وتسخيره لحمل السفن التي تمخره، أي: تشقه، وقيل: تمخر الرياح، وكلاهما صحيح، وقيل: تمخره

(١) التفسير القرآني للقرآن، لعبد الكريم الخطيب ٧/ ١٨٥.
(٢) التفسير الوسيط، الزحيلي ٢/ ١٢٠٠.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١/ ١١٤.
(٤) التفسير الوسيط، الزحيلي ٢/ ١٤٢٤.
(٥) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور ١٥/ ٢٠٨.

بجؤجئها وهو صدرها المسنم الذي أرشد العباد إلى صنعتها وهداهم إلى ذلك، إرثًا عن أبيهم نوحٍ عليه السلام، فإنه أول من ركب السفن، وله كان تعليم صنعتها، ثم أخذها الناس عنه قرنًا بعد قرنٍ، وجيلًا بعد جيلٍ، يسيرون من قطرٍ إلى قطر، ومن بلد إلى بلد، ومن إقليم إلى إقليم، لجلب ما هناك إلى ما هنا، وما هنا إلى ما هناك[١].

﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ أي: ترى السفن شواق للماء تدفعه بصدرها. ومخر السفينة: شقها الماء بصدرها[٢].

ومن نعم الله تعالى أيضًا تذليله البحر للناس، وتيسيره للركوب فيه، وعبور الفلك السفن فيه جيئة وإيابا، وطلب فضل الله ورزقه بالتجارة فيه، مما يوجب شكر نعمه وإحسانه على الناس بما يسره لهم في البحار[٣].

يقول تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [فاطر: ١٢].

﴿فِيهِ﴾ أي: في كل. ﴿مَوَاخِرَ﴾ تشق الماء بجريها[٤].

﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ﴾ أي: في كل واحدٍ من البحرين.

وقال النحاس: الضمير يعود إلى الماء المالح خاصةً، ولولا ذلك لقال: فيهما مواخر يقال: مخرت السفينة تمخر: إذا شقت الماء. فالمعنى: وترى السفن في البحرين شواق للماء بعضها مقبلةٌ، وبعضها مدبرةٌ بريحٍ واحدةٍ[٥].

﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ أي: تمخره وتشقه بحيزومها: وهو مقدمها المسنم الذي يشبه جؤجؤ الطير وهو صدره، وقال مجاهدٌ: تمخر الريح السفن ولا يمخر الريح من السفن إلا العظام.

وقوله جل وعلا: ﴿لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: بأسفاركم بالتجارة من قطرٍ إلى قطرٍ وإقليمٍ إلى إقليم.

وقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: تشكرون ربكم على تسخيره لكم هذا الخلق العظيم، وهو البحر، تتصرفون فيه كيف شئتم، تذهبون أين أردتم، ولا يمتنع عليكم شيءٌ منه، بل بقدرته قد سخر لكم ما في السموات وما في الأرض، الجميع من فضله ورحمته[٦].

وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٨٣.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ١٨٤.
(٣) التفسير الوسيط، الزحيلي ٢/ ١٢٤٨.
(٤) الموسوعة القرآنية، لإبراهيم الأبياري ١١/ ٢١.
(٥) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٣٩٣.
(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤٧٨.

Made searchable using ScribeTools.com

﴿ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ [إبراهيم: ٣٢].

وهو سبحانه الذي سخر الفلك، وأجراها مع الماء، وسخر الأنهار لتحمل الفلك على ظهرها[١].

﴿لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: ولتطلبوا بها منافع أخرى من فضل الله غير ما تقدم، كالتجارة ونقل الحاصلات والبضائع من مرفإ إلى مرفإ ومن قطر إلى قطر، وغير ذلك كالارتحال بها لطلب العلم حيث يوجد العلم والعلماء[٢].

هو وحده لا شريك له ﴿ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ﴾ وهيأه لمنافعكم المتنوعة. ﴿لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ وهو السمك والحوت الذي يصطادونه منه، ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ فتزيدكم جمالًا وحسنًا إلى حسنكم، ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ﴾ أي: السفن والمراكب ﴿مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ أي: تمخر في البحر العجاج الهائل بمقدمها حتى تسلك فيه من قطر إلى آخر، تحمل المسافرين وأرزاقهم وأمتعتهم وتجاراتهم التي يطلبون بها الأرزاق وفضل الله عليهم[٣].

ومن تسخير البحر: خلقه على هيئةٍ يمكن معها السبح والسير بالفلك، وتمكين السابحين والماخرين من صيد الحيتان المخلوقة فيه والمسخرة لحيل الصائدين. وزيد في الامتنان أن لحم صيده طريٌّ[٤].

رابعًا: الانتفاع بجريان مائه:

من المنافع التي تحدثت عنها بعض آيات الأنهار: السرور بمنظر الماء الجاري للنهر، هذا السرور الذي يبعث البهجة في النفس، والراحة النفسية، والتفكر في ملكوت الله وعظمته وامتنانه على عباده.

قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البقرة: ٢٥].

قيل: المعنى في ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا﴾: أي: بأمر سكانها واختيارهم، فعبر بتحتها عن قهرهم لها وجريانها على حكمهم، كما قيل في قوله تعالى حكايةً عن فرعون: وهذه الأنهار تجري من تحتي، أي: بأمري وقهري... وقد روي عن مسروقٍ: أن أنهار الجنة تجري في غير أخاديد، وأنها تجري على سطح أرض الجنة منبسطةً.

وإذا صح هذا النقل، فهو أبلغ في النزهة، وأحلى في المنظر، وأبهج للنفس. فإن الماء الجاري ينبسط على وجه الأرض جوهره فيحسن اندفاعه وتكسره، وأحسن البساتين

(١) التفسير القرآني للقرآن، لعبد الكريم الخطيب ٧/ ١٨٥.
(٢) التفسير الوسيط، مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ٥/ ٥٩٩.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٣٧.
(٤) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور ١٤/ ١١٩.

ما كانت أشجاره ملتفةً وظله ضافيًا وماؤه صافيًا منسابًا على وجه أرضه، لا سيما الجنة، حصباؤها الدر والياقوت واللؤلؤ، فتتكسر تلك المياه على ذلك الحصى، ويجلو صفاء الماء بهجة تلك الجواهر، وتسمع لذلك الماء المتكسر على تلك اليواقيت واللآلئ له خريرًا[(١)].

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ أي: من تحت أشجارها، كما تراها جارية تحت الأشجار النابتة على شواطئها[(٢)].

وقال تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ۝٥٠﴾ [الرحمن: ٥٠].

وأورد أبو حيان قول ابن عباسٍ: هما عينان مثل الدنيا أضعافًا مضاعفةً، وقال: تجريان بالزيادة والكرامة على أهل الجنة.

وقال الحسن: تجريان بالماء الزلال، إحداهما التسنيم، والأخرى السلسبيل.

وقال ابن عطية: إحداهما من ماءٍ، والأخرى من خمرٍ. وقيل: تجريان في الأعالي والأسافل من جبلٍ من مسكٍ[(٣)].

ومما يزيدها بهجة ورواء أن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَـٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ [الكهف: ٣٣].

فجر الله سبحانه خلال الجنتين-أي: بين الجنتين-نهرًا عذبًا، فكان هذا النهر متعة للناظرين، وسببًا أدى إلى وصول الماء الدائم والمستمر إلى هاتين الجنتين، فكان هذا أيضًا من الأسباب التي جعلت هاتين الجنتين تؤتي أكلها كاملة[(٤)].

وقال الله تعالى: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢﴾ [الغاشية: ١٢].

أي: في تلك الجنة عين عظيمة لا ينقطع ماؤها عن الجريان، أو عيون كثيرة،... ووصف ماء العيون بالجريان للإشارة إلى أنه بارد صافٍ؛ لأن ماء العيون إذا كان جاريًا يكون في العادة باردًا صافيًا مع ما في منظر الماءِ الجاري من مسرة وارتياح[(٥)].

---

(١) البحر المحيط، لأبي حيان ١/ ١٨٢-١٨٣.
(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ٦٠.
(٣) انظر: البحر المحيط، لأبي حيان ١٠/ ٦٨، وأنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ١٧٤.
(٤) انظر: مقرر التفسير الموضوعي ٢، ص٢٤٢.
(٥) التفسير الوسيط، مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ١٠/ ١٨٨٩.

Made searchable using ScribeTools.com

أكل صيده وطعامه واستخراج حليته

لما كانت هذه الشريعة خاتمة الشرائع السماوية، كان لابد أن تكون مميزة بخصائص ومميزات تجعلها قابلة للثبات والاستمرار ومواكبة لحياة الإنسان مهما كان، وفي أي عصر كان، وفي أي مكان كان.

ومن أهم المميزات التي تميزت بها شريعتنا الغراء: رفع الحرج عن المكلفين والتيسير عليهم، من أجل هذا كانت عناية الشريعة، تلك العناية البالغة ببيان الحلال والحرام، من طعام الإنسان وشرابه، ليقيم وجهه على ما أحل الله له من طيبات. وليعرض عما حرم عليه من خبائث.

قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [المائدة: ٩٦].

ففي هذه الآية يبين الله سبحانه وتعالى للمؤمنين حكم الصيد، وما لهم منه، وما عليهم فيه.

فعن أبي هريرة: (أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، إنا نركب البحر ونحمل معنا القليل من الماء، فإن توضأنا به عطشنا، أفنتوضأ بماء البحر؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هو الطهور ماؤه الحل ميتته)[1].

والبحر يشمل الأنهار والأودية؛ لأن جميعها يسمى بحرًا في لسان العرب. وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ الآية. وليس العذب إلا الأنهار كدجلة والفرات. وصيد البحر: كل دواب الماء التي تصاد فيه، فيكون إخراجها منه سبب موتها قريبًا أو بعيدًا. فأما ما يعيش في البر وفي الماء فليس من صيد البحر كالضفدع والسلحفاة، ولا خلاف في هذا[2].

وفي هذا يتضح أن الله تعالى أباح لعباده أكل ما في الأرض من الحلال الطيب، وكانت وجوه الحلال كثيرة، وبين لهم ما حرم عليهم لكونه أقل، حتى إن الصحابة كانوا عندما يتشككون في أمرٍ يذهبون إلى رسول الله ويسألونه.

فعن جابرِ بن عبد الله قال: «غزونا جيش الخبط[3] وأميرنا أبو عبيدة، فجعنا جوعًا شديدًا، فألقى البحر حوتًا ميتًا لم نر مثله، يقال له: العنبر، فأكلنا منه نصف شهرٍ، فأخذ أبو عبيدة عظمًا من عظامه فمر الراكب

(١) الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده، ١٤/ ٣٤٩رقم ٨٧٣٥.

(٢) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور ٧/ ٥٢.

(٣) الخبط: ورق الشجر يضرب بالعصا فيسقط، وسميت هذه الغزوة بذلك لشدتها على الصحابة حتى أنهم أكلوا الخبط انظر معالم السنن لشرح أبي داوود، ٤/ ٢٥٢.

تحته، قال: فلما قدمنا المدينة ذكرنا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال: (كلوا رزقًا أخرجه الله عز وجل لكم، أطعمونا إن كان معكم، فأتاه بعضهم بشيءٍ فأكله)[1].

قال أبو بكر الصديق: صيد البحر ما تصطاده أيدينا وطعامه ما لاثه البحر[2].

فلا يخفى ما لإطابة المطعم بتحري ما أحل الله وترك ما حرم الله من أثر بالغ على قلب الإنسان وسلوكه، وأن الأكل من الطيبات له آثار حميدة على النفوس والأبدان؛ لأن الطيبات تؤثر الخير والنفع للأبدان والعقول والأخلاق، والخبائث تؤثر شرًا وضررًا في الأبدان والعقول والأخلاق، وكل ما ينفع فهو طيب وكل ما يضر فهو خبيث.

وإن هذه الطيبات التي أحلها الله لهي من ضمن الأشياء التي سخرها سبحانه وتعالى لنا في قوله عز وجل: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [فاطر: ١٢].

﴿وَمِن كُلٍّ﴾ منهما ﴿تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ وهو ما يصاد منهما من حيواناتهما التي تؤكل[3].

يقول تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [النحل: ١٤].

هو وحده لا شريك له ﴿ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ﴾ وهيأه لمنافعكم المتنوعة. ﴿لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ وهو السمك والحوت الذي يصطادونه منه، ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ فتزيدكم جمالا وحسنا إلى حسنكم[4].

ومن تسخير البحر: خلقه على هيئةٍ يمكن معها السبح والسير بالفلك، وتمكين السابحين والماخرين من صيد الحيتان المخلوقة فيه والمسخرة لحيل الصائدين. وزيد في الامتنان أن لحم صيده طريٌّ[5].

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [فاطر: ١٢].

إن من آيات الله عز وجل أن سخر لنا البحر لنأكل منه لحمًا طريًا، ومن نعم الله جل في علاه أن ذلل البحر لنا حتى استطعنا

(١) الحديث أخرجه البخاري، ٥/ ١٦٧، رقم ٤٣٦٢.
(٢) الدر المنثور في التفسير بالمأثور، للسيوطي، ٣/ ١٩٧.
(٣) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٣٩٣.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١/ ٤٣٧.
(٥) التحرير والتنوير، لا بن عاشور ١٤/ ١١٩.

Made searchable using ScribeTools.com

أن نصطاد منه الأسماك وغيرها مما يؤكل من هذه اللحوم الطرية، كذلك ذلّله لنا لنغوص فيه فنجمع اللؤلؤ والمرجان وما يتخذ زينة. سمي السمك لحمًا؛ لأنه حيوان من جملة الحيوانات، وكونه بحريًا لا ينفي كونه لحمًا، ووصف بالطري؛ لأن لحم السمك أطرى من لحم حيوانات البر.

يمتن الله على عباده بتذليل البحر لهم وتيسيرهم للركوب فيه، وجعله السمك والحيتان فيه، وإحلاله لعباده لحمها حيها وميتها، وما يخلقه فيه من اللآلئ والجواهر النفيسة، وتسهيله للعباد استخراجهم من قراره حليةً يلبسونها[1].

امتن الله سبحانه بتسخير البحر بإمكان الركوب عليه واستخراج ما فيه من صيدٍ وجواهر؛ لكونه من جملة النعم التي أنعم الله بها على عباده مع ما فيه من الدلالة على وحدانية الرب سبحانه وكمال قدرته،... ثم ذكر العلة في تسخير البحر فقال: ﴿لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ المراد به: السمك، ووصفه بالطراوة للإشعار بلطافته، والإرشاد إلى المسارعة بأكله لكونه مما يفسد بسرعةٍ[2].

﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ أي: لؤلؤًا ومرجانًا كما في قوله سبحانه: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ [الرحمن:٢٢][3].

وقد ذكر بعض المفسرين أن «وصفه بالطراوة؛ لأن الفساد يسارع إليه»، ولكن هذا القول مما لا يناسب مقام الامتنان بنعم الله؛لأن المعنى يكون حينئذ: وسخر لكم البحر لتأكلوا لحم السمك الذي يسارع إليه الفساد فتأكلونه طريًا لئلا يفسد، وهذا لا يناسب مقام الامتنان، وإنما الذي يناسب مقام الامتنان هو وصف لحم السمك بالطراوة الذي هو عنوان للذة لحوم السمك، جاء التعبير ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا﴾ وليس « تخرجوا»؛ لأن الاستخراج يدل على الطلب، فالذي يغوص في البحر يطلب اللؤلؤ والمرجان، فهو يستخرجهما، أي: يطلبهما[4].

ووجه الأكل إلى لحمه مباشرة وفيه إشارة إلى أنه لا يزكى، بل يؤكل ميتًا، ولذا روى في الأثر (**أحل لنا ميتتان حلالان: السمك والجراد**)[5].

وعبر سبحانه وتعالى أيضًا بقوله: ﴿لَحْمًا طَرِيًّا﴾، ولم يقل سمكًا؛ لأن في البحر ما ليس بسمك، حيوانات تشبه

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ٤٨٣.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ١٨٣.
(٣) المصدر السباق ٣/ ١٨٤.
(٤) التفسير البياني لما في سورة النحل من دقائق المعاني، لسامي القدومي ١/ ٢٩.
(٥) أخرجه ابن ماجه، كتاب الأطعمة، باب الكبد والطحال ٢/ ١١٠٢، رقم ٣٣١٤، وأحمد ٢/ ٩٧، رقم ٥٧٢٣.

حيوانات البحر، والظاهر أنها حلال وفيها ضخم يكفي الألوف، كالحيوان البحري المسمى الترسة، وكالحوت وفرس البحر، وغير ذلك، وكلها لحم طري، وقد وصف القرآن اللحم الذي يؤخذ من البحر بأنه لحم طري؛ لأنه فعلًا طري، وعظمه قليل، ولا يتخلل أجزاء جسمه، بل هو في موضع معين والذي يتخلل جسمه شيء صغير يسميه العامة « سفا ».

ويقول الزمخشري في وصفه بأنه طري للإشارة إلى أنه سريع العفن، وأنه ضار إذا تعفن، وفي ذلك نظر، فإنه إذا وضع الملح عليه لم يكن ضارًا في تعفنه، وهو المتفسخ منه، وقد أنكره أطباء عصرنا وزماننا ثم أباحوه، بل استحسنوه، وقرروا أن فيه سرًا طبيًا، وإن لم يعرفوه، وحرم التفسخ الحنفية؛ لأنه ضار، وقد علمت ما فيه.

و (اللام) في قوله تعالى: ﴿لِتَأْكُلُوا﴾ هي لام الغاية، أي: ذلله وسخره لتأكلوا منه لحما بعد صيده، وإنضاجه، وفيه مواد غذائية كبيرة، مملوءة بالقشور، وغيرها.

وإذا كان ذلك الطعام فيه منفعة مرئية طيبة، فالبحر وعاء للجواهر المختلفة، ولذا قال: ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ وهي ما يسمونه بالأحجار الكريمة من لآلئ، وزمرد، وغيرهما مما يتحلى به النساء وبعض المرفهين من الرجال، وإن لم يتشبهوا بالنساء[1].

فالأنهار تقدم للإنسان أيضًا فوائد كثيرة، وخاصة مع سكان المناطق التي يعيشون على ضفافها، فهي تفيض لهم بالخير، وتخرج من جوفها الأسماك والأعشاب والخيرات، وقد أثبت العلم الغذائي ما في ثمار البحر عمومًا، والسمك خصوصًا، من فوائد جمة. وينصح الأطباء بتناول وجبة سمك ولو مرة واحدة أو مرتين في الأسبوع؛ لما فيها من غذاء ضروري للأجسام.

ومن نعم الله تعالى أيضًا تذليله البحر للناس، وتيسيره للركوب فيه، وإباحته الأسماك المختلفة المستخرجة منه، واستخراج الحلي واللآلئ منه للبس والزينة، والاستفادة من المرجان، وعبور الفلك (السفن) فيه جيئة وإيابًا، وطلب فضل الله ورزقه بالتجارة فيه، مما يوجب شكر نعمه وإحسانه على الناس بما يسره لهم في البحار[2].

(١) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة، لمحمد أبي زهرة ٨/ ٤١٤٤.

(٢) التفسير الوسيط، الزحيلي ٢/ ١٢٤٨.
وانظر في هذا المعنى كلام البيضاوي في: أنوار التنزيل ٣/ ٢٢٢.

Made searchable using ScribeTools.com

أنهار الجنة

جمع الله عز وجل الأنهار التي أعدها لعباده المتقين في الجنة في آية واحدة من آيات القرآن الكريم، ومن حكمته سبحانه أن جعل هذه الآية في سورة محمد صلى الله عليه وسلم.

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾ [محمد: ١٥].

لما بين سبحانه الفرق بين الفريقين في الاهتداء والضلال بين الفرق في مرجعهما ومآلهما، فقال: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[1].

و﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾: صفة الجنة العجيبة الشأن، وقوله: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ﴾، في حكم الصلة، كالتكرير لها. ألا ترى إلى سر قوله: التي فيها أنهارٌ؟ ويجوز أن تكون خبر مبتدإٍ محذوفٍ هي: فيها أنهارٌ[2].

﴿أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ ذكر الله تعالى في هذه الآية نوعين من الجزاء لكل من الفريقين: جزاء مادي وجزاء معنوي، أما نوعا جزاء المؤمنين فهما المشروب والمطعوم، والمغفرة والرضوان، وأما نوعا جزاء الكافرين فهما المشروب الحار، والخلود في النار...ومعنى الآية: إن نعت الجنة أو وصفها العجيب الشأن، التي وعد الله بها عباده المتقين، الذين اتقوا عقابه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه؛ هو ما تسمعون. ثم ابتدأ بمشروب أهل الجنة فيها أنهار جارية، من ماء غير متغير الطعم والريح واللون لطول المكث، بل إنه ماء عذب فرات، متدفق نقي غير مصحوب برواسب أو طحالب، من شربه لا يظمأ أبدًا، وقد ابتدأ بالماء؛ لأنه أعم نفعًا للناس من بقية المشروبات[3].

ونقل ابن كثير قول قتادة والضحاك وعطاء الخراساني: غير منتنٍ، والعرب تقول: أسن الماء إذ تغير ريحه[4].

﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ وفيها أنهار من حليب لم يحمض كما تتغير ألبان الدنيا، وهو في غاية البياض والحلاوة والدسومة، وثنى باللبن، لأنه ضروري للناس كلهم، وهو غذاء كامل ومطعوم شهي[5].

﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ والخمر: عصير العنب الذي يترك حتى يصيبه التخمر

(١) فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٤١.
(٢) انظر: البحر المحيط، لأبي حيان ٩/ ٤٦٦، والتفسير المنير، الزحيلي ٢٦/ ١٠٠.
(٣) التفسير المنير، الزحيلي ٢٦/ ١٠٢.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٨٩.
(٥) المصدر السباق.
وانظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢٦/ ١٠٣.

وهو الحموضة مثل خمير العجين. ولذةٍ وصفٌ وليس باسم، وهو تأنيث اللذ، أي: اللذيذ، واللذاذة: انفعالٌ نفسانيٌ فيه مسرةٌ، وهي ضد الألم وأكثر حصوله من الطعوم والأشربة والملامس البدنية، فوصف خمرٍ هنا بأنها لذةٍ، معناه: يجد شاربها لذاذةً في طعمها، أي: بخلاف خمر الدنيا فإنها حريقة الطعم فلولا ترقب ما تفعله في الشارب من نشوةٍ وطربٍ لما شربها لحموضة طعمها[1].

أي: ليست كريهة الطعم والرائحة كخمر الدنيا، حسنة المنظر والطعم والرائحة والفعل لا فيها غولٌ ولا هم عنها ينزفون ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الصافات: ٤٧][2].

﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ﴾ أي: تلذذ خالص ليس معه ذهاب عقل ولا سكر ولا صداع، بخلاف خمر الدنيا، فإنها كريهة عند الشرب، و﴿لَذَّةٍ﴾: تأنيث لذ، أي: لذيذ[3].

وفيها أنهار من خمر لذيذة الطعم، طيبة الشرب، ليست كريهة الطعم والرائحة أو مرة كخمر الدنيا، بل حسنة المنظر والطعم والرائحة: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الصافات: ٤٧].

﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الواقعة: ١٩].

أي: ليس فيها ضرر ولا مادة مسكرة تزيل العقل، ولا يصيب شاربها صداع، ولا يذهب عقله، وإنما هي لذيذة للشاربين: ﴿بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الصافات: ٤٦].

وذكرت في المرتبة الثالثة؛ لأنها ليست ضرورية، وإنما فيها متعة ذوقية، فهي لذيذة الطعم، طيبة الشرب، لا يكرهها الشاربون، وتناولها للذة بعد حصول الري والمطعوم[4].

﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ العسل المصفى: الذي خلص مما يخالط العسل من بقايا الشمع وبقايا أعضاء النحل التي قد تموت فيه[5].

أي: من عسل ليس فيه عكرٌ ولا كدرٌ كعسل أهل الدنيا[6].

وفيها أنهار من عسل في غاية الصفاء، وحسن اللون والطعم والريح، لم يخالطه شيء من الشمع والقذى والعكر والكدر.

وذكر في المرتبة الرابعة؛ لأنه ليس ضروريًا وإنما جمع بين مختلف الطعوم والإحساسات الذوقية المرغوبة، ولا شك أن الحلو أطيب الطعوم، والعسل أرقاها، وفيه فوائد كثيرة للجسد: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾ [النحل: ٦٩].

ففيه الشفاء في الدنيا بعد المشروب

(١) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور ٢٦/ ٩٧.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٨٩.
(٣) تفسير الكشاف، الزمخشري ٤/ ٣٢٢.
(٤) التفسير المنير، الزحيلي ٢٦/ ١٠٣.
(٥) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور ٢٦/ ٩٧.
(٦) زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ١١٨.

Made searchable using ScribeTools.com

والمطعوم، وفيه الخير في الآخرة.

وفي ذكر هذه الأجناس الأربعة، إطناب بتكرار لفظ أنهارٌ، وتشويق لنعيم الجنة، وجمع بين الضرورة (الماء) والحاجة (اللبن) والمتعة (الخمر غير المسكرة) والعلاج النافع (العسل)[١].

وقد يكون ذكر هذه الأربعة جمعًا بين ما تشتهيه كل الأذواق من الناس، ليكتمل لأهل الجنة كل شراب يشتهى.

ويورد ابن كثير حديث الإمام أحمد بسنده عن حكيم بن معاوية عن أبيه، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **(في الجنة بحر اللبن وبحر الماء وبحر العسل وبحر الخمر، ثم تشقق الأنهار منها بعد)**[٢].

وفي الصحيح أشار النبي صلى الله عليه وسلم مرغبا أمته في العمل على طلب الجنة وأنهارها فقال: **(إذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس؛ فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة وفوقه عرش الرحمن)**[٣].

والمعنى العام للآية: مثل الجنة الموعودة للمؤمنين، وشأنها العجيب ما يتلى عليكم من جلائل النعم، في هذه الجنة أنهار من الماء النقي المتجدد الذي لم يداخله كدر، ولم يلحقه تغير في لون أو طعم لطول مكثه، وأنهار من لبن لم تطرأ عليه حموضة ولم يستكره له طعم، كما يحدث في ألبان الدنيا، وأنهار من خمر لذيذ الطعم مستساغ المذاق، ليس فيها كراهية ريح، ولا غائلة سكر، ولا يجد شاربها إلا اللذة والمتعة، وأنهار من عسل خالص صرف مصفى من الشمع، ومن جميع الشوائب وفضلات النحل، وفيها غير هذا من كل الثمرات، وأصناف المطعومات ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، وكل ذلك من الوفرة والكثرة بحيث لا يخاف منه حرمان، ولا إقلال ولهم قبل هذا مغفرة واسعة من ربهم تمحو ذنوبهم، وترفع درجاتهم[٤].

من أنهار الدنيا في الجنة:

وإذا كان بعض المفسرين يرى أن أنهار الجنة هذه، التي ذكرت في الآية الكريمة، وصفت على سبيل التشبيه، فبعضهم يرى أن أنهار الماء حقيقة، وأنهار اللبن والعسل والخمر على طريقة التشبيه البليغ أو المماثلة.

قال أبو حيان الأندلسي: «ويظهر أن

(١) التفسير المنير، الزحيلي، ٢٦/ ١٠١-١٠٣.

(٢) مسند أحمد بن حنبل، ٥/ ٥، وأخرجه الترمذي، في كتاب صفة الجنة، باب ٢٧، عن محمد بن بشارٍ، وقال: حسنٌ صحيحٌ.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد، باب ٤، والترمذي في صفة الجنة، باب ٤، وأحمد في مسنده، ٢/ ٣٣٥.

(٤) التفسير الوسيط، مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ٩/ ٩٥٨.

القصد بالتمثيل هو إلى الشيء الذي يتخيله المرء عند سماعه. فههنا كذا، فكأنه يتصور عند ذلك اتباعًا على هذه الصورة، وذلك هو مثل الجنة»[١].

وقال ابن عاشور: «فأما إطلاق الأنهار على أنهار الماء فهو حقيقةٌ، وأما إطلاق الأنهار على ما هو من لبنٍ وخمرٍ وعسلٍ فذلك على طريقة التشبيه البليغ، أي: مماثلةٌ للأنهار، فيجوز أن تكون المماثلة تامةً في أنها كالأنهار مستبحرةٌ في أخاديد من أرض الجنة، فإن أحوال الآخرة خارقةٌ للعادة المعروفة في الدنيا، فإن مرأى أنهارٍ من هذه الأصناف مرْأى مبهجٌ. ويجوز أن تكون مماثلة هذه الأصناف للأنهار في بعض صفات الأنهار وهي الاستبحار. وهذه الأصناف الخمسة المذكورة في الآية كانت من أفضل ما يتنافسون فيه ومن أعز ما يتيسر الحصول عليه، فكيف الكثير منها، فكيف إذا كان منها أنهارٌ في الجنة»[٢].

أقول: ومع ذلك فإن رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم دلنا بوضوح على أنه في الدنيا أنهار من أنهار الجنة.

فقد ذكر البغوي بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(سيحان وجيحان والنيل والفرات كلٌّ من أنهار الجنة)**[٣].

كما أورد القرطبي قول كعب الأحبار: نهر دجلة نهر ماء أهل الجنة، ونهر الفرات نهر لبنهم، ونهر مصر نهر خمرهم، ونهر سيحان نهر عسلهم، وهذه الأنهار الأربعة تخرج من نهر الكوثر[٤].

وهذا الكلام أقصد قول كعب الذي أورده القرطبي له علاقة بالحديث الصحيح قبله، وإن كان آخره وهو خروج هذه الأنهار من نهر الكوثر لم أعثر له على أثر، والله أعلم.

(١) البحر المحيط، لأبي حيان ٩/ ٤٦٦، والتفسير المنير، الزحيلي ٢٦/ ١٠٠.
(٢) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور ٢٦/ ٩٥.
(٣) أخرجه مسلم في الجنة، باب ما في الدنيا من أنهار الجنة، رقم ٢٨٣٩ ٤ / ٢٦٨٣.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ٢٣٧.

Made searchable using ScribeTools.com

الأنهار في المثل القرآني

المثل في الأدب: قول محكي سائر، يقصد به تشبيه حال الذي حكي فيه بحال الذي قيل لأجله، أي: يشبه مضربه بمورده.

ويطلق المثل على الحال والقصة العجيبة الشأن. وبهذا المعنى فسر لفظ المثل في كثير من الآيات. كقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ [محمد: ١٥].

أي: قصتها وصفتها التي يتعجب منها[١].

وضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمورٌ كثيرةٌ، منها: التذكير والوعظ، والحث والزجر، والاعتبار والتقرير، وترتيب المراد للعقل، وتصويره في صورة المحسوس، بحيث يكون نسبته للفعل كنسبة المحسوس إلى الحس.

وتأتي أمثال القرآن مشتملةً على بيان تفاوت الأجر، وعلى المدح والذم، وعلى الثواب والعقاب، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره، وعلى تحقيق أمر وإبطال أمر.

قال تعالى ممتنًا على عباده بضرب الأمثال لما تضمنته من فوائد: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الروم: ٥٨].

وقال أيضًا: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: ٤٣][٢].

وذكر الله المثلين: المائي والناري-في سورة الرعد للحق والباطل. فقال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ [الرعد: ١٧].

شبه الوحي الذي أنزله من السماء لحياة القلوب بالماء الذي أنزله لحياة الأرض بالنبات، وشبه القلوب بالأودية، والسيل إذا جرى في الأودية احتمل زبدًا وغثاء، فكذلك الهدى والعلم إذا سرى في القلوب أثار ما فيها من الشهوات ليذهب بها، وهذا هو المثل المائي في قوله: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ وهكذا يضرب الله الحق والباطل[٣].

وهذا المثل مضروب لمن عمل عملًا لوجه الله تعالى من صدقة أو غيرها، ثم عمل أعمالًا تفسده، فمثله كمثل صاحب هذا البستان الذي فيه من كل الثمرات، وخص منها النخل والعنب لفضلهما وكثرة منافعهما، لكونهما غذاء وقوتًا وفاكهة وحلوى، وتلك الجنة فيها الأنهار الجارية

(١) مباحث في علوم القرآن، للقطان ص٢٩١.

(٢) البرهان في علوم القرآن، للزركشي ١/ ٤٨٧.

(٣) مباحث في علوم القرآن، للقطان ص٢٩٤.

التي تسقيها من غير مؤنة، وكان صاحبها قد اغتبط بها وسرته[1].

ثم إنه أصابه الكبر فضعف عن العمل وزاد حرصه، وكان له ذرية ضعفاء ما فيهم معاونة له، بل هم كل عليه، ونفقته ونفقتهم من تلك الجنة، فبينما هو كذلك إذ أصاب تلك الجنة إعصار، وهو الريح القوية التي تستدير ثم ترتفع في الجو، وفي ذلك الإعصار نار، فاحترقت تلك الجنة، فلا تسأل عما لقي ذلك الذي أصابه الكبر من الهم والغم والحزن، فلو قدر أن الحزن يقتل صاحبه لقتله الحزن، كذلك من عمل عملًا لوجه الله فإن أعماله بمنزلة البذر للزروع والثمار، ولا يزال كذلك حتى يحصل له من عمله جنة موصوفة بغاية الحسن والبهاء، وتلك المفسدات التي تفسد الأعمال بمنزلة الإعصار الذي فيه نار، والعبد أحوج ما يكون لعمله إذا مات، وكان بحالة لا يقدر معها على العمل، فيجد عمله الذي يؤمل نفعه هباء منثورًا، ووجد الله عنده فوفاه حسابه، والله سريع الحساب، فلو علم الإنسان وتصور هذه الحال وكان له أدنى مسكة من عقل، لم يقدم على ما فيه مضرته ونهاية حسرته، ولكن ضعف الإيمان والعقل وقلة البصيرة يصير صاحبه إلى هذه الحالة، التي لو صدرت من مجنون لا يعقل لكان ذلك عظيمًا وخطره جسيمًا، فلهذا أمر تعالى بالتفكر وحث عليه[2].

ومن الأمثال التي لها صلة بالأنهار في القرآن قوله تعالى: ﴿۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾ [الرعد: ٣٥].

يقول تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ الذين تركوا ما نهاهم الله عنه، ولم يقصروا فيما أمرهم به، أي: صفتها وحقيقتها ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أنهار العسل، وأنهار الخمر، وأنهار اللبن، وأنهار الماء التي تجري في غير أخدود، فتسقى تلك البساتين والأشجار فتحمل من جميع أنواع الثمار. ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ دائم أيضًا، ﴿تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ أي: عاقبتهم ومآلهم التي إليها يصيرون، ﴿وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ فكم بين الفريقين من الفرق المبين؟!![3].

كذلك من الأمثال التي لها صلة بالأنهار قوله تعالى: ﴿۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الكهف: ٣٢-٣٣].

وتصوير المثل كما حكى القرآن:

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١١٤.

(٢) المصدر السابق ص١١٤.

(٣) المصدر السابق ص٤١٩.

Made searchable using ScribeTools.com

واضرب أيها الرسول مثلًا لهؤلاء المشركين بالله الذين طلبوا منك طرد المؤمنين من مجلسك، ذلك المثل هو حال رجلين، جعل الله لأحدهما جنتين، أي:بستانين من أعناب، محاطين بنخيل، وفي وسطهما الزروع والأشجار المثمرة. ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾ أي: أخرجت ثمارها، ولم تنقص منه شيئًا في كل عام. ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا﴾ أي: وشققنا وسط الجنتين نهرًا، تتفرع عنه عدة جداول، لسقي جميع الجوانب[1].

ويورد ابن الجوزي في مورد المثل رواية عطاء عن ابن عباس، قوله: هما ابنا ملك كان في بني إسرائيل، توفي وتركهما، فاتخذ أحدهما الجنان والقصور، وكان الآخر زاهدًا في الدنيا، فكان إذا عمل أخوه شيئًا من زينة الدنيا، أخذ مثل ذلك فقدمه لآخرته، حتى نفد ماله، فضربهما الله عز وجل مثلًا للمؤمن والكافر الذي أبطرته النعمة[2].

إذن فقد وردت الأنهار في المثل القرآني في أكثر من موضع، للمقابلة بين الحق والباطل في المثل المائي والناري، وللتذكير والوعظ في النهر الذي فجره الله وسط الجنتين، وللتشويق إلى أنهار الجنة، وللاعتبار والتقرير والثبات على الإيمان، وغير ذلك.

(١) التفسير الوسيط، الزحيلي ٢/ ١٤٢٤.
(٢) زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٨٣.

الأنهار والابتلاء

الابتلاء وسيلة تمييز الصفوف وتمحيص القلوب؛ جعله سنة ماضية، فحمل الأمانة لا يصلح له كل الناس، بل يحتاج إلى قوم مختارين، وهم الصفوة الذين يعدون لهذا الأمر إعدادًا خاصًا ليحسنوا القيام به.

ومن النتائج المترتبة على سنة الابتلاء لاحقًا: سنة التمحيص، فالمؤمن من جهة يتعرض للمحنة، فيصقل معدنه من أثرها، والمنافق من جهة ثانية لا يستطيع الصمود أمام الفتنة، فينكص على عقبيه؛ ولهذا جعل الله التمحيص معبرًا لتنقية الصف المؤمن من أدعياء الإيمان، فيقع به التمييز بين الدر الثمين والخرز الخسيس.

قال تعالى ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وقوله تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وقد أدرك أهل العلم والبصيرة هذه الحقيقة؛ فعندما سئل الإمام الشافعي رحمه الله: أيما أفضل للرجل: أن يمكن أو يبتلى؟ فقال: لا يمكن حتى يبتلى.

أولًا: ابتلاء الله لجنود طالوت بالنهر:

من حوادث الابتلاء المتعلقة بالأنهار:

ما ذكره القرآن الكريم من ابتلاء الله عز وجل بني إسرائيل بالنهر وعدم الشرب منه، والقصة بدأت عندما طلبوا من نبيهم القتال، وأن يبعث لهم ملكًا يقاتلون معه؛ لرفع الظلم الواقع عليهم.

وفي ذلك يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾﴾ [البقرة: ٢٤٦].

وهذه القصة حدثت بعد وفاة موسى عليه السلام، والنبي الذي سألوه أن يبعث لهم ملكًا هو شمويل بن بال بن علقمة، ويعرف بابن العجوز، ويقال فيه: شمعون. قاله السدي، وإنما قيل: ابن العجوز؛ لأن أمه كانت عجوزًا، فسألت الله الولد، وقد كبرت وعقمت فوهبه الله تعالى لها، ويقال له أيضًا: شمعون.

قال وهب بن منبه: لما قال الملأ من بني إسرائيل لشمويل بن بال ما قالوا، سأل الله تعالى أن يبعث إليهم ملكًا ويدله عليه، فقال الله تعالى له: انظر إلى القرن الذي فيه الدهن في بيتك، فإذا دخل عليك رجل فنش الدهن الذي في القرن، فهو ملك بني إسرائيل فادهن رأسه منه وملكه عليهم.

وكان طالوت دباغًا فخرج في ابتغاء دابة أضلها، فقصد شمويل عسى أن يدعو له في أمر الدابة أو يجد عنده فرجًا، فنش الدهن على ما زعموا، قال: فقام إليه شمويل فأخذه ودهن منه رأس طالوت، وقال له: أنت ملك بني إسرائيل الذي أمرني الله تعالى بتقديمه .

ثم قال لبني إسرائيل: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾[البقرة: ٢٤٧].

وكان طالوت من سبط بنيامين، ولم يكن من سبط النبوة، ولا من سبط الملك، وكانت النبوة في بني لاوي، والملك في سبط يهوذا، فلذلك أنكروا، وقالوا: ا أنى يكون له الملك علينا ؟أي: كيف يملكنا ونحن أحق بالملك منه؟!، جروا على طريقتهم في التعنت مع الأنبياء، والانحراف عن أمر الله تعالى، وتعجبوا كيف يكون له الملك، وهم من سبط الملوك ، هو ليس كذلك، هم أغنياء وهو فقير؟، فتركوا السبب الأقوى وهو قدر الله تعالى وقضاؤه السابق، فالأمر أمره والعبد عبده، والحلال ما أحل، والحرام ما حرم، والدين ما شرع، وليس للعبد إلا أن يستسلم ويقول: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير.

فنبيهم قد صرح لهم وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ فساروا على درب إبليس عندما اعترض على الأمر

Made searchable using ScribeTools.com

المباشر بالسجود لآدم، وكان أول من قاس قياسًا فاسدًا في مواجهة النص، وقال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾ قد تصور القوم أن الملك حكر عليهم، وأن التقديم والتأخير تبعًا للغنى والفقر، وصادموا الوحي بذلك، وهم أهل تعنت؛ فقد صنعوا ذلك من قبل مع نبي الله موسى عليه السلام عندما أمرهم بذبح بقرة، فأكثروا وشددوا؛ فشدد الله عليهم.

قال ابن عباسٍ: كان طالوت يومئذٍ أعلم رجلٍ في بني إسرائيل وأجمله وأتمه، وزيادة الجسم مما يهيب العدو[1].

قال تعالى ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة: ٢٤٩].

لما كان بنو إسرائيل من قبل كارهين لملك طالوت عليهم، ثم أذعنوا من بعد، وكان إذعان الجميع ورضاهم مما لا يمكن العلم به إلا بالاختبار والابتلاء، أراد الله أن يبتلي هذا القائد جنده ليعلم المطيع والعاصي والراضي والساخط، فيختار المطيع الذي يرجى بلاؤه في القتال، وثباته في معامع النزال، وينفي من يظهر عصيانه، ويخشى في الوغى خذلانه، فإن طاعة الجيش للقائد وثقته به من شروط الظفر، وأحوج القواد إلى اختبار الجيش من ولي على قوم وهم له كارهون، أو كان فيهم من يكرهه، فإذا وجد في الجيش من ليس متحدًا معه يخشى أن يوضعوا خلاله يبغونه الفتنة ويسمونه بالفشل.

فأخبر طالوت جنوده بأن سيمرون على نهر يمتحنهم به بإذن الله، فمن شرب منه فلا يعد من أشياعه المتحدين معه في أمر القتال. إلا أن يكون ما يشربه قليلًا وهو غرفة تؤخذ باليد، فإن هذا مما يتسامح فيه ولا يراه مانعًا من الاتحاد به والاعتصام بحبله، ومن لم يطعمه، أي: يذقه بالمرة فإنه منه، وهو الذي يركن إليه ويوثق به تمام الثقة، فالابتلاء سيكون على ثلاث مراتب:

الأولى: مرتبة من يشرب فيروى لا يبالي بالأمر، وحكمه أن يتبرأ منه.

الثانية: ومرتبة من يأخذ بيده غرفة يبل بها ريقه وهو مقبول في الجملة.

الثالثة: مرتبة من لا يذوقه ألبتة، وهو الولي النصير الذي يوثق باتحاده، ويعول على جهاده.

قال تعالى: ﴿فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٢٤٦.

﴿مِّنْهُمْ﴾ ذلك أن القوم كانوا قد فسد بأسهم وتزلزل إيمانهم، واعتادوا العصيان فسهل عليهم عصيانهم، وشق عليهم مخالفة الشهوة وإن كان فيها هوانهم، ولم يبق فيهم من أهل الصدق في الإيمان والغيرة على الملة والأمة إلا نفر قليل ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

والعدد القليل من أهل العزائم يفعل ما لا يفعل الكثير من ذوي المآثم، كما يعلم من قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾[1].

فلما خرج طالوت بالجنود من بيت المقدس، لقتال أعدائهم، قال لهم: إن الله مختبركم وممتحن مقدار صدقكم-في لقاء عدوكم، واستجابتكم لأوامر قائدكم- ﴿بِنَهَرٍ﴾ يعترض طريقكم: أطلب منكم عدم الشرب منه، ليظهر منكم المطيع والعاصي، فإن طاعة القائد شرط أساسي للنصر، فمن غلبته شهوته وشرب من مائه، فليس من أتباعي؛ لأنه إذا عصاني اليوم، فهو أحرى أن يعصي أمري وقت اشتداد الحرب، فتحدث الهزيمة. ومن لم يذق ماءه استجابة لهذا الأمر وصبر، فإنه مني، ضالع معي في لقاء العدو، والرغبة في الانتصار عليه.

ثم استثنى من القسم الأول وهو: من شرب من النهر فقال: ﴿إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ يبل بها ريقه في هذه الفلاة وشدة العطش، فلا بأس عليه في ذلك.

قالوا - في حكمة الأمر بالاكتفاء بالغرفة-: إنه اختبار لطاعتهم كما تقدم، كما أن فيه سلامة الجندي، فإن الإسراف في الشرب-عند مناجزة العدو-يضر ضررًا بليغًا.

﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ أي: فلم يمتثلوا ما أمرهم به طالوت، بل شربوا منه أكثر مما أمرهم به، إلا قليلًا منهم، نفذوا أمره فاغترف كل واحد منهم لنفسه غرفة واحدة[2].

وهؤلاء الذين يظنون أنهم ملاقو الله في الآخرة هم الذين آمنوا وجاوزوا النهر مع طالوت، قال ضعافهم: لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده، وقال أقوياؤهم: كم من فئة قليلة إلخ... ثم اشتد بعضهم بعزيمة بعض، وكان من أمر انتصارهم ما يأتي في الآية التي بعد هذه، والعبارة لا تدل على أن الذين شربوا من النهر لم يجاوزوه، وإنما خص بالذكر الذين لم يشربوا؛ لأنهم لم يتخلفوا عن طالوت لأجل الشرب، فهم الذين جاوزوه معه مقترنين وهم الذين يعتدهم منه، ويتبرأ من المتخلفين العاصين.

(١) تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا ٢/ ٣٨٦.

(٢) التفسير الوسيط، لمجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، ١/ ٤٢٣.

Made searchable using ScribeTools.com

كما علم من قوله في الابتلاء[1].

والظاهر أن الملك لما علم أنه سائرٌ بهم إلى عدوٍ كثير العدد، وقوي العهد أراد أن يختبر قوة يقينهم في نصرة الدين، ومخاطرتهم بأنفسهم وتحملهم المتاعب وعزيمة معاكستهم نفوسهم، فقال لهم: إنكم ستمرون على نهرٍ، وهو نهر الأردن، فلا تشربوا منه فمن شرب منه فليس مني، ورخص لهم في غرفةٍ يغترفها الواحد بيده يبل بها ريقه، وهذا غاية ما يختبر به طاعة الجيش، فإن السير في الحرب يعطش الجيش، فإذا وردوا الماء توافرت دواعيهم إلى الشرب منه عطشًا وشهوةً، ويحتمل أنه أراد إبقاء نشاطهم؛ لأن المحارب إذا شرب ماءً كثيرًا بعد التعب، انحلت عراه ومال إلى الراحة، وأثقله الماء[2].

امتحنهم بأمر الله ليتبين الثابت المطمئن ممن ليس كذلك، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ فهو عاص ولا يتبعنا؛ لعدم صبره وثباته ولمعصيته ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ﴾ أي: لم يشرب منه فإنه مني ﴿إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ فلا جناح عليه في ذلك، ولعل الله أن يجعل فيها بركة فتكفيه، وفي هذا الابتلاء ما يدل على أن الماء قد قل عليهم ليتحقق الامتحان، فعصى أكثرهم وشربوا من النهر الشرب المنهي عنه[3].

ومن بديع إيجاز القرآن: أن يحذف الشيء ويأتي في السياق بما يدل عليه، كما وصف الذين لم يشربوا بالإيمان مرة وباعتقاد لقاء الله تعالى مرة أخرى، فأعلمنا أن هذا الإيمان والاعتقاد هما سبب طاعة القائد وترك الشرب، وسبب الشجاعة والإقدام على لقاء العدو الذي يفوقهم عددًا[4].

إذن فقد جعل الله الأنهار سببًا للابتلاء، فابتلى بني إسرائيل بالنهر وعدم الشرب منه، اختبارًا لطاعتهم وثباتهم وهو أعلم.

ثانيًا: ابتلاء الله لفرعون بجريان الأنهار من تحت قصوره:

الابتلاء سنة ربانية جارية إلى يوم القيامة، وهي سنة ثابتة من سنن الدعوات، وعلامة من علامات الصدق، والسير في الاتجاه الصحيح نحو تحقيق الأهداف، وكيف لا؟! والتاريخ يؤيد هذه الحقيقة، والقرآن يؤكدها ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد: ٣١].

ولقد خلق الله الإنسان في هذه الحياة ليختبره ويبتليه، وجعل حياته في هذه الدنيا حياة كد وكدح وكبد، فقال سبحانه موضحًا

(١) تفسير المنار، لمحمد عبده، ومحمد رشيد رضا، ٢/ ٣٨٧.

(٢) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، ٢/ ٤٩٦.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١/ ١٠٨.

(٤) تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا ٢/ ٣٨٧.

هذه المعاني: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝٢﴾ [الملك: ١-٢].

ومن مظاهر سنة الابتلاء: ابتلاء الله لفرعون بجريان الأنهار من تحت قصوره، وقد تحدثت بعض آيات القرآن الكريم عن هذا النوع من الابتلاءات، قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٥١﴾ [الزخرف: ٥١].

يقول تعالى مخبرًا عن فرعون وتمرده وعتوه وكفره وعناده، أنه جمع قومه فنادى فيهم متبجحًا مفتخرًا بملك مصر وتصرفه فيها ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ أي: أفلا ترون ما أنا فيه من العظمة والملك، يعني: وموسى وأتباعه فقراء ضعفاء[1].

﴿مِن تَحْتِي﴾ أي: من تحت قصري. ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ أعميتم عن مشاهدة ذلك.[2] ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ﴾ قيل: لما رأى تلك الآيات، وهي الآيات التسع التي ذكرها في سورة الإسراء وغيرها، استجاب الله بعد تكذيبه بها دعاء موسى، وهو المشار إليه قبل هذه الآية في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ۝٥٠﴾ [الزخرف: ٥٠].

خاف ميل القوم إلى موسى، فجمعهم ونادى بصوته فيما بينهم أو أمر مناديًا ينادي بقوله: يا قوم أليس لي ملك مصر؟ لا ينازعني فيه أحدٌ ولا يخالفني مخالفٌ ﴿وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ أي: من تحت قصري، والمراد: أنهار النيل.

وقال قتادة: المعنى: تجري بين يدي.

وقال الحسن: تجري بأمري، أي: تجري تحت أمري[3].

لما رأى الملأ من قوم فرعون الآيات تترى عليهم، وسخط ربك حالًا بهم: قال: ﴿يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ﴾ [الزخرف:٤٩]، قيل: هو خطاب تعظيم عندهم ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ من النبوة لئن كشفت عنا العذاب الذي نزل بنا لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل، وإننا لمهتدون إلى الصواب، وإلى الحق الذي تدعو إليه، فلما كشفنا عنهم العذاب، فاجأوا الكشف عنهم بأنهم ينكثون العهود وينقضون المواثيق.

هذا ما كان من أمر القوم وخاصة الملأ منهم، أما فرعون ملك مصر فها هي ذي أعماله: ونادى فرعون في قومه بأن جمعهم في مكان واحد كالسوق مثلًا، أو جمع أشرافهم وهم بلغوا عنه فكأنه نادى فيهم

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ٢١٢.
(٢) الموسوعة القرآنية، لإبراهيم بن إسماعيل الأبياري، ١١/ ١٥٥.
(٣) فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ٦٤٠.

Made searchable using ScribeTools.com

جميعا، فماذا قال؟ قال: يا قوم أليس لي ملك مصر؟ استفهام المراد منه التقرير، أي: قروا بما تعرفونه من أني ملك مصر.

وهذه الأنهار -فروع نهر النيل- تجرى من تحتي، وتسير بأمرى، وأنا صاحب التصرف في كل ما ينتج عن جريها من مزروعات وغيرها. وعلى أنها كانت تجرى من تحت قصره، ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ تلك الحقائق؟ بل تبصرون أني أنا خير من هذا الذي هو فقير وضعيف[1].

ومن المعلوم أن التاريخ تحكمه سنن الله الكونية، ومن لم يفقه هذه السنن لا يفقه التاريخ، إذن فالتاريخ ليس أحداثًا تتعاقب، بقدر ما هو أسباب تنتج عنها نتائج بإذن ربها، حينئذ ندرك طرفًا من مقصود الآيات التي تتحدث عن هلاك فرعون وجنوده غرقًا، بعد أن شق الله سبحانه وتعالى البحر لموسى ومن معه من المؤمنين، فبين الله سبحانه وتعالى وقيعتهم المأساوية حيث أغرقوا جميعًا فتركوا ديارهم، وما تزخر به من أسباب الرفاهية والسعادة.

قال تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الأعراف: ١٣٦]

وكان إغراقهم انتقامًا من الله لذاته لأنهم جحدوا انفراد الله بالإلهية، أو جحدوا إلاهيته أصلًا، وانتقامًا أيضًا لبني إسرائيل؛ لأن فرعون وقومه ظلموا بني إسرائيل وأذلوهم واستعبدوهم باطلًا.

والإغراق: الإلقاء في الماء المستبحر الذي يغمر الملقى فلا يترك له تنفسًا، وهو بيانٌ للانتقام وتفصيلٌ لمجمله، فيكون المعنى: فأردنا الانتقام منهم فأغرقناهم، واليم: البحر والنهر العظيم، والمراد به هنا بحر القلزم، المسمى في التوراة بحر سوف، وهو البحر الأحمر. وقد أطلق (اليم) على نهر النيل في قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ﴾ [طه: ٣٩].

وقوله: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ [القصص٧].

فالتعريف في قوله: اليم هنا تعريف العهد الذهني عند علماء المعاني المعروف بتعريف الجنس عند النحاة؛ إذ ليس في العبرة اهتمامٌ ببحرٍ مخصوصٍ ولكن بفردٍ من هذا النوع[2].

ومن هنا بعدما اقتحم فرعون بفرسه الطريق الذي شقه الله لموسى في البحر، ولما خرج موسى بقومه إلى الشاطىء الشرقي أطبق الله البحر على فرعون وجنوده فكانوا من المغرقين، لقد ذهب كل هذا مع غمضة عين، وهو الآن كالريشة

(١) التفسير الواضح، ٣/ ٣٩٩، لمحمد محمود حجازي، نشر: دار الجيل الجديد، بيروت، الطبعة: العاشرة، ١٤١٣ هـ.

(٢) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، ٩/ ٧٥.

في بحر متلاطم، لقد خلع من فكرة عظمة الملك وترفع السلطان، ونسي كل العز الذي رآه بهذه اللحظات الحالكة، كأنه لم يعش بين الرياشي وفاخر الأثاث، والإحاطة بالأتباع والجنود لحظة واحدة، إنه رهين الحالة القاتلة رهين الغرق، ضعف ما بعده ضعف، فعاد سريعًا إلى ما خبأته الذاكرة من دعوة موسى وأنها الحق، لكنه كان قد عاند وكابر، والآن حصص الحق، وينبغي أن تظهر الحقيقة وألا تضيع في خضم العناد فصرخ بأعلى صوته ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠].

الآن أيها الطاغية..أيها الفرعون.. ولو قلتها قبل ذلك لكان لك شأن آخر، ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يونس: ٩١].

الآن وبعد سنين طويلة من الصد والجدال، والتكبر والغطرسة والتقتيل والصلب تعلنها، وقد اعترفت بالضعف الإنساني، وأنه لا حول لك ولا قوة، وأن الله جلت قدرته هو القوي الخالق هو المعبود بحق، ثم كان الفصل من الله ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [يونس: ٩٢].

وطفت جثة فرعون فوق الماء، وجرفتها الأمواج نحو الساحل، ورأى المستضعفون جثة فرعون وهو ذليل صاغر، هذا في الدنيا، وفي الآخرة النار والعذاب الأليم ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾﴾ [هود: ٩٨].

فهو الزعيم عليهم حين كان ملكًا، وسيكون زعيمهم يرد بهم النار يوم القيامة، فتعسًا لهذا الزعيم وتعسًا لأتباعه المضلين.. وهكذا مصير أتباع كل زعيم ضال [(١)].

الواقع أن أي نوعٍ من العقوبة فيه آيةٌ على القدرة، وفيه تنكيلٌ بمن وقع بهم، ولكن تخصيص كل أمةٍ بما وقع عليها يثير تساؤلًا، ولعل مما يشير إليه القرآن إشارةً خفيفةً هو الآتي.

أما فرعون، فقد كان يقول: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ [الزخرف: ٥١].

فلما كان يتطاول بها جعل الله هلاكه فيها، أي: في جنسها [(٢)].

وفي هذا يتبين لنا أن الله ابتلى فرعون بابتلاءات عدة، والتي كان منها جريان الأنهار من تحت قصوره، لكنه لم ينجح في كل هذه الابتلاءات، وقدر الله أن يكون بلاؤه بالوسيلة التي كان يتكبر بها ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ

(١) قصص القرآن الكريم في سيرة سيد المرسلين، لمحمد منير الجنباز ص١٧٧.
(٢) أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٢٥٩.

Made searchable using ScribeTools.com

﴿٥١﴾ [الزخرف: ٥١].

ثالثًا: ابتلاء الله للأمم الهالكة بالأنهار:

إن سنة الله لا تحابي أحدًا، وليس لفردٍ ولا لمجتمعٍ حصانةٌ ذاتيةٌ، وحين تقصر أمةٌ في توقي أسباب المصائب العامة، فإن عليها أن تتقبل نتيجة التقصير، والسعيد من اتعظ بغيره، والغافل من غفل عن نفسه حتى وعظ به غيره، وليست أمةٌ بمنأى عن العذاب إذا عقدت أسبابه، ولا في مأمنٍ من العقاب إن سلكت سبيله وفتحت للذنب أبوابه، ولذلك أكثر الله تعالى من وعظ هذه الأمة بمصارع الأمم الغابرة، وحذر الآمنين من مكره الذين لا يقدرون الله حق قدره، ولا يقفون عند نهيه وأمره.

قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٤١].

ومن مظاهر الابتلاء التي لها صلة بالأنهار في القرآن الكريم: ابتلاء الله للأمم الهالكة بهذه الأنهار.

قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأنعام: ٦].

قال الشوكاني: القرن يطلق على أهل كل عصرٍ، سموا بذلك لاقترانهم، أي: ألم يعرفوا بسماع الأخبار ومعاينة الآثار كم أهلكنا من قبلهم من الأمم الموجودة في عصرٍ بعد عصرٍ لتكذيبهم أنبياءهم. وقيل: القرن مدةٌ من الزمان. وهي ستون عامًا أو سبعون أو ثمانون أو مائةٌ على اختلاف الأقوال،... مكن له في الأرض: جعل له مكانًا فيها، ومكنه في الأرض: أثبته فيها،... أي: مكناهم تمكينًا لم نمكنه لكم، والمعنى: أنا أعطينا القرون الذين هم قبلكم ما لم نعطكم من الدنيا وطول الأعمار وقوة الأبدان وقد أهلكناهم جميعًا. فإهلاككم -وأنتم دونهم- بالأولى.

قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾ يريد المطر الكثير، والمدرار: صيغة مبالغةٍ تدل على الكثرة، وجريان الأنهار من تحتهم معناه: من تحت أشجارهم ومنازلهم، أي: أن الله وسع عليهم النعم بعد التمكين لهم في الأرض فكفروها، فأهلكهم الله بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم، أي: من بعد إهلاكهم قرنًا آخرين فصاروا بدلًا من الهالكين، وفي هذا بيانٌ لكمال قدرته سبحانه وقوة سلطانه وأنه يهلك من يشاء ويوجد من يشاء[1].

قال تعالى واعظًا للمشركين المعاندين ومحذرًا لهم أن يصيبهم من العذاب والنكال

(١) فتح القدير، الشوكاني، ٢/ ١١٦.

الدنيوي ما حل بأشباههم ونظرائهم، من القرون السالفة الذين كانوا أشد منهم قوةً، وأكثر جمعًا وأكثر أموالًا وأولادًا واستغلالًا للأرض، وعمارةً لها، فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ أي: من الأموال والأولاد والأعمار، والجاه العريض والسعة والجنود، ولهذا قال: ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾ أي: شيئًا بعد شيءٍ ﴿وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ﴾ أي: أكثرنا عليهم أمطار السماء وينابيع الأرض، أي: استدراجًا وإملاءً لهم ﴿فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: بخطاياهم، وسيئاتهم التي اجترحوها(١).

﴿وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ﴾ أي:من تحت أمكنتهم، والمراد أنهم: أصحاب البساتين والقصور والمنتزهات(٢).

قال القرطبي: والمعنى: وسعنا عليهم النعم فكفروها. ﴿فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾أي: بكفرهم فالذنوب سبب الانتقام وزوال النعم. ﴿وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ أي: أوجدنا، فليحذر هؤلاء من الإهلاك أيضًا(٣).

أي: وسخرنا لهم الأنهار وهي مجاري المياه الفائضة وهديناهم إلى الاستمتاع بها بجعلها تجري دائمًا من تحت مساكنهم التي يبنونها على ضفافه، أو في الجنات والحدائق التي تتفجر خلالها، فيتمتعون بالنظر إلى جمالها، وبسائر ضروب الانتفاع من أمواهها.

﴿فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ أي: فكان عاقبة أمرهم لما كفروا بتلك النعم وكذبوا الرسل أن أهلكنا كل قرنٍ منهم بسبب ذنوبهم التي كانوا يقترفونها. ﴿وَأَنشَأْنَا﴾ أي: أوجدنا من بعد الهالكين من كلٍ منهم قرنًا آخرين يعمرون البلاد ويكونون أجدر بشكر نعم الله عليهم فيها(٤).

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى رتب أحوال هؤلاء الكفار على ثلاث مراتب:

فالمرتبة الأولى: كونهم معرضين عن التأمل في الدلائل : والتفكر في البينات.

والمرتبة الثانية: كونهم مكذبين بها، وهذه المرتبة أزيد مما قبلها؛ لأن المعرض عن الشيء قد لا يكون مكذبًا به، بل يكون غافلًا عنه غير متعرض له فإذا صار مكذبًا به فقد زاد على الأعراض.

والمرتبة الثالثة: ونهم مستهزئين بها؛ لأن المكذب بالشيء قد لا يبلغ تكذيبه به إلى حد الاستهزاء، فإذا بلغ إلى هذا الحد فقد بلغ الغاية القصوى في الإنكار فبين تعالى أن أولئك الكفار وصلوا إلى هذه المراتب

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢١٥.
(٢) غرائب القرآن، للنيسابوري ٣/ ٥١.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٣٩٢.
(٤) تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا ٧/ ٢٥٧.

Made searchable using ScribeTools.com

الثلاثة على هذا الترتيب[1].

وقد وصف الله أولئك المهلكين بسبب اجتراحهم للسيئات بصفات ثلاث لم تتوفر للمشركين المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم.

وصفهم **أولًا** بأنهم كانوا أوسع سلطانًا، وأكثر عمرانًا، وأعظم استقرارًا، كما يفيده قوله تعالى ﴿مَكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾.

قال صاحب الكشاف: «والمعنى: لم نعط أهل مكة نحو ما أعطينا قوم عاد وثمود وغيرهم من البسطة فى الأجسام، والسعة في الأموال، والاستظهار بأسباب الدنيا»[2].

ووصفهم-**ثانيًا**- بأنهم كانوا أرغد عيشًا، وأسعد حالًا، وأهنأ بالًا، يدل على ذلك قوله تعالى:

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾ أي: أنزلنا عليهم المطر النافع بغزارة وكثرة، وعبر عنه بالسماء لأنه ينزل منها.

ووصفهم-**ثالثًا**- بأنهم كانوا منعمين بالمياه الكثيرة التى يسيرون مجاريها كما يشاءون، فيبنون مساكنهم على ضفافها. ويتمتعون بالنظر إلى مناظرها الجميلة، كما يرشد إليه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ﴾ أي: صيرنا الأنهار تجري من تحت مساكنهم.

ولكن ماذا كانت عاقبة هؤلاء المنعمين بتلك النعم الوفيرة التي لم تتيسر لأهل مكة؛ كانت عاقبتهم-كما أخبر القرآن عنهم- ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ أي: فكفروا بنعمة الله وجحدوا فأهلكناهم بسبب ذلك؛ إذ الذنوب سبب الانتقام وزوال النعم[3].

إنها حقيقة ينساها البشر-إلا من عصم الله-وعندئذ ينحرفون عن عهد الله وعن شرط الاستخلاف؛ ويمضون على غير سنة الله؛ ولا يتبين لهم في أول الطريق عواقب هذا الانحراف، ويقع الفساد رويدًا رويدًا،وهم ينزلقون ولا يشعرون، حتى يستوفي الكتاب أجله؛ ويحق وعد الله، ثم تختلف أشكال النهاية: مرة يأخذهم الله بعذاب الاستئصال-بعذاب من فوقهم أو من تحت أرجلهم كما وقع لكثير من الأقوام، ومرة يأخذهم بالسنين ونقص الأنفس والثمرات كما حدث كذلك لأقوامومرة يأخذهم بأن يذيق بعضهم بأس بعض؛ فيعذب بعضهم بعضًا، ويدمر بعضهم بعضًا، ويؤذي بعضهم بعضًا، ولا يعود بعضهم يأمن بعضًا؛ فتضعف شوكتهم في النهاية؛ ويسلط الله عليهم عبادًا له-طائعين أو

(١) مفاتيح الغيب، للفخر الرازي ١٢/ ١٣٠.
(٢) الكشاف، الزمخشري ٢/ ٨.
(٣) التفسير الوسيط، لمحمد سيد طنطاوي ٥/ ٣٩.

عصاة-يخضدون شوكتهم، ويقتلعونهم مما مكنوا فيه؛ ثم يستخلف الله العباد الجدد ليبتليهم بما مكنهم.

وهكذا تمضي دورة السنة، السعيد من وعى أنها السنة، ومن وعى أنه الابتلاء؛ فعمل بعهد الله فيما استخلف فيه، والشقي من غفل عن هذه الحقيقة، وظن أنه أوتيها بعلمه، أو أوتيها بحيلته، أو أوتيها جزافًا بلا تدبير![1]

لمسات إعجازية في الأنهار

المقصود باللمسات الإعجازية في الأنهار: ما يدركه ويتوصل إليه العلماء المتخصصون من حقائق خاصة بالأنهار، وقد ألمح القرآن الكريم إليها سابقًا.

اللمسة الأولى:

في قوله تعالى: ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾﴾ [الفرقان: ٥٣].

قال الإمام الطبري: « يقول تعالى ذكره: والله الذي خلط البحرين، فأمرج أحدهما في الآخر، وأفاضه فيه. وأصل المرج الخلط، ثم يقال للتخلية: مرج؛ لأن الرجل إذا خلى الشيء حتى اختلط بغيره، فكأنه قد مرجه.

وإنما اخترنا القول الذي اخترناه في معنى قوله، دون القول الذي قاله من قال: معناه: إنه جعل بينهما حاجزًا من الأرض أو من اليبس؛ لأن الله تعالى ذكره أخبر في أول الآية أنه مرج البحرين، والمرج: هو الخلط في كلام العرب على ما بينت قبل، فلو كان البرزخ الذي بين العذب الفرات من البحرين، والملح الأجاج أرضًا أو يبسًا لم يكن هناك مرج للبحرين، وقد أخبر جل ثناؤه أنه مرجهما، وإنما عرفنا قدرته بحجزه هذا الملح الأجاج عن إفساد هذا

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ١٠١٠.

Made searchable using ScribeTools.com

العذب الفرات، مع اختلاط كل واحد منهما بصاحبه. فأما إذا كان كل واحد منهما في حيز عن حيز صاحبه، فليس هناك مرج، ولا هناك من الأعجوبة ما ينبه عليه أهل الجهل به من الناس، ويذكرون به، وإن كان كل ما ابتدعه ربنا عجيبًا، وفيه أعظم العبر والمواعظ والحجج البوالغ[1].

أي: وهو وحده الذي مرج البحرين يلتقيان البحر العذب وهي الأنهار السارحة على وجه الأرض والبحر الملح وجعل منفعة كل واحد منهما مصلحة للعباد، ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ أي: حاجزًا يحجز من اختلاط أحدهما بالآخر فتذهب المنفعة المقصودة منها ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أي: حاجزًا حصينًا[2].

هذا عذبٌ فراتٌ بالغ العذوبة، وهذا ملحٌ أجاجٌ بالغ الملوحة والمرارة، وجعل بينهما برزخًا حائلًا، ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أي: وسترًا مستورًا يمنع أحدهما من الاختلاط بالآخر[3].

الحقيقة العلمية التي لها صلة بالآية:

بعد مسح لعدد كبير من مناطق اللقاء بين الأنهار والبحار، اكتشف الباحثون أن منطقة المصب بيئة متميزة، في صفاتها الطبيعية والإحيائية عن النهر وعن البحر، رغم تداخل المياه وتحركها بينهما، بحسب مد البحر وجزره، وفيضان النهر وجفافه، وكأن حاجزًا يفصل بيئة المصب عن بيئة النهر وبيئة البحر، ويحافظ على هذه المنطقة بخصائصها المميزة، رغم عوامل المزج، كالمد والجزر وحالات الفيضان والانحسار التي تعتبر من أقوى عوامل المزج.

وبتصنيف البيئات الثلاث، باعتبار الكائنات الحية التي تعيش فيها تعتبر منطقة المصب حجر على معظم الكائنات الحية التي تعيش فيها، لأن هذه الكائنات لا تستطيع أن تعيش إلا في منطقة المصب ذات الخصائص المميزة، وهي في نفس الوقت منطقة محجورة على معظم الكائنات التي تعيش في البحر والنهر؛ لأن هذه الكائنات تموت إذا دخلتها بسبب اختلاف خصائصها.

وجه الإعجاز في الآية الكريمة: كل تجمع مائي يمكن أن يسمى بحرًا، والبحر العذب الفرات أو شديد العذوبة هو النهر، والبحر الملح الأجاج أو شديد الملوحة هو المحيط أو البحر المالح، وبهذا خرج ماء المصب؛ لأنه مزيج بين الملوحة والعذوبة فلا ينطبق عليه وصف عذب فرات ولا ملح أجاج، وبهذه الأوصاف تحددت حدود الكتل المائية الثلاث: ماء النهر، وماء البحر، وبينهما ماء منطقة المصب التي

(١) جامع البيان، ابن جرير الطبري ١٩/ ٢٨١.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٨٥.
(٣) الموسوعة القرآنية، لإبراهيم الأبياري ١٠/ ٤٢١.

وصفت في الآية الكريمة بكونها برزخًا أو حاجزًا يمنع طغيان صفة ملوحة البحر على النهر أو عذوبة النهر على البحر، وميزت بيئة المصب بأنها حجر على ما فيها من كائنات حية محجورة على ما يعيش خارجها في النهر أو البحر، وهذا يعني تمايز البيئات الثلاث في الصفات الطبيعية وفي الكائنات الحية. ويشهد التطور التاريخي في سير علم البحار بعدم وجود معلومات دقيقة عن البحار قبل ١٤٠٠ عام، ومع ذلك وصف القرآن الكريم بدقة منطقة مصبات الأنهار، فبين أنها بيئة متميزة في خصائصها الطبيعية والإحيائية عن بيئة النهر وبيئة البحر وكشف أنه رغم تداخل المياه وتحركها الدائم في اتجاه البحر تظل تلك الخصائص ثابتة، فمن أين تلك المعرفة في القرآن بلا تقنية وأدوات علمية إن لم يكن من عند الذي أحاط بكل شيء علمًا[1].

اللمسة الثانية:

في قوله تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النمل: ٦١].

جاء في تفسير هذه الآية: أي: قارةً ساكنةً ثابتةً، لا تميد ولا تتحرك بأهلها، ولا ترجف بهم، فإنها لو كانت كذلك لما طاب عليها العيش والحياة، بل جعلها من فضله ورحمته مهادًا بساطًا، ثابتةً لا تتزلزل ولا تتحرك.

﴿وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا﴾ أي: جعل فيها الأنهار العذبة الطيبة، شقها في خلالها، وصرفها فيها ما بين أنهارٍ كبارٍ وصغارٍ وبين ذلك، وسيرها شرقًا وغربًا وجنوبًا وشمالًا، بحسب مصالح عباده في أقاليمهم وأقطارهم، حيث ذرأهم في أرجاء الأرض، وسير لهم أرزاقهم بحسب ما يحتاجون إليه.

﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ﴾ أي جبالًا شامخةً ترسي الأرض وتثبتها؛ لئلا تميد بهم.

﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ أي:جعل بين المياه العذبة والمالحة حاجزًا، أي: مانعًا يمنعها من الاختلاط لئلا يفسد هذا بهذا، وهذا بهذا، فإن الحكمة الإلهية تقتضي بقضاء كل منها على صفته المقصودة منه، فإن البحر الحلو هو هذه الأنهار السارحة الجارية بين الناس، والمقصود منها: أن تكون عذبةً زلالًا يسقى الحيوان والنبات والثمار منها.

والبحار المالحة هي المحيطة بالأرجاء والأقطار من كل جانبٍ، والمقصود منها أن يكون ماؤها ملحًا أجاجًا؛ لئلا يفسد الهواء

(١) مقال علمي بعنوان: مصبات الأنهار، على الشبكة العنكبوتية للإنترنت، موقع: الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، رابط: http://www.eajaz.org/index.php/Scientific_Miracles/Earth_and_Marine_Sciences/٢٠٠_Estuaries

Made searchable using ScribeTools.com

بريحها[١].

وقال الزحيلي: جعل الأرض مستقرًا للإنسان وغيره، لا تميد ولا تتحرك بأهلها، وجعل فيها الأنهار العذبة الطيبة لسقاية الإنسان والحيوان والنبات، وجعل فيها جبالًا ثوابت شامخة ترسي الأرض وتثبتها لئلا تميد بكم، وجعل بين المياه العذبة والمالحة حاجزًا، أي: مانعًا يمنعها من الاختلاط، لئلا يفسد هذا بذاك، لتبقى الغاية من التفرقة بينهما متحققة، فإن الماء العذب الزلال لسقي الإنسان والحيوان والنبات والثمار، والماء المالح في البحار؛ ليكون مصدرًا للأمطار، وليبقى الهواء فوقه نقيًا صافيًا لا يفسد بالرائحة الكريهة التي تحدث عادة في تجمعات المياه العذبة[٢].

يحدث أحيانًا أن ينشأ النهر في أرض ممهدة، قبل تكون سلسلة الجبال بعدة ملايين من السنين، وبعد أن تنتصب الجبال يستمر النهر في تحد غريب، في تعميق مجراه قاطعًا السلسلة الجبلية، وتشير الآية القرآنية إلى تلك الحالة إشارة معجزة:

تأمل الترتيب البديع؛ من قرار الأرض، إلى خلق الأنهار، إلى نشأة الجبال الرواسي، ثم تكوين الحاجز بين البحرين[٣].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ١٨٣.
(٢) التفسير المنير، الزحيلي، ٢٠/ ١٢.
(٣) مقال بعنوان: الأنهار في القرآن، لحسني حمدان، على الشبكة العنكبوتية للإنترنت، موقع: الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، رابط: http://www.eajaz.org/index.php/Scientific_Miracles/Earth_and_Marine_Sciences/٢٠٠، Estuaries

موضوعات ذات صلة:

الإسراف، الاقتصاد، الزكاة، المال، المن